التجديد في التفسير عند الشيخ

محمد أبي زهرة

(١٣١٦ -١٣٩٤هـ) (١٨٩٨ -١٩٧٤م)

إعداد

د. عبد العزيز بن صالح الخزيم

الأستاذ المساعد في قسم القرآن وعلومه بجامعة القصيم

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

التجديد في التفسير عند الشيخ محمد أبي زهرة (١٣١٦-١٣٩٤هـ) (١٨٩٨-١٩٧٤م)

عبد العزيز بن صالح الخزيم
قسم القرآن وعلومه بجامعة القصيم
dr.a.khziem@gmail.com

الملخص

الحمد لله وحده والصلاة على من لا نبي بعده نبينا محمد وعلى آله وصحبه وبعد:

فهذا ملخص لبحث عنوانه: التجديد في التفسير عند الشيخ محمد أبي زهرة

أ)القضية المحورية في البحث: يتناول البحث إبراز معالم التجديد في التفسير عند الشيخ محمد ابي زهرة.

ب)الهدف المراد بلوغه: يهدف البحث إلى إظهار معالم التجديد في التفسير عند الشيخ محمد أبي زهرة في كتابه (زهرة التفاسير)، وشواهد تلك المعالم التجديدية.

ج) المنهجية العلمية المتبعة:

يقوم البحث على المنهج الاستقرائي لمعالم التجديد عند الشيخ محمد أبي زهرة في تفسيره وفي الدراسات المعنية به، مع إعمال المنهج التحليلي لبيان شواهد معالم التجديد. وفق الإجراءات التالية:

١.بيان المراد بالمعلم التجديدي.

٢.اختيار شواهد تدل على المعلم التجديد من تفسير أبي زهرة أو من الدراسات التي تناولت منهجه.

٣.الإحالة إلى تفسير أبي زهرة باسمه (زهرة التفاسير) في أول موضع، والاكتفاء برقم الجزء والصفحة في بقية المواضع لتكرار النقل منه.

٤.اتباع الإجراءات العامة المعمول بها في البحث العلمي في العزو، والتخريج، والتعريف بالغريب، وغير المشهورين من الأعلام...

– ويتكون يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين:

المقدمة: وفيها أهمية البحث، ومشكلته، وأهدافه، وحدوده، ومنهجه وإجراءاته.

التمهيد: وفيه: تعريف التجديد في التفسير.

المبحث الأول: الشيخ محمد أبو زهرة وتفسيره، وفيه ثلاثة مطالب:

المبحث الثاني: معالم التجديد في تفسير الشيخ محمد أبي زهرة.

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

د) الإضافة والأهمية العلمية والعملية للبحث: تتمثل في المساهمة بدراسة تطبيقية في مجال تجديد التفسير، وإبراز جهود أحد المفسرين المعاصرين في هذا المجال.

الكلمات المفتاحية:

التجديد – في - التفسير – عند – الشيخ – محمد – أبي – زهرة -

Abstract

Thank God alone and pray for those who have no prophet after him, our Prophet Muhammad, and his god and companions, and after:

This is a summary of a research entitled: The Renewal of Interpretation by Sheikh Mohammed Abi Zahra

A) The central issue of the research: The research deals with highlighting the features of innovation in the interpretation of Sheikh Mohammed Abi Zahra.

B) The goal to be achieved: The research aims to show the features of renewal in the interpretation of Sheikh Mohammed Abu Zahra in his book (Zahra al-Tasir), and the evidence of those regenerative features.

C) The scientific methodology used :

The research is based on the inductive approach to the features of renewal by Sheikh Mohammed Abi Zahra in his interpretation and in the studies concerned, with the implementation of the analytical method to show the evidence of the parameters of renewal. According to the following procedures:

1 .Statement of what is meant by the regenerative teacher.

2 .Choose evidence indicating the teacher's renewal from abu Zahra's interpretation or from studies that addressed his curriculum.

3 .Refer to abu Zahra's interpretation in his name (Flower of Interpretations) in the first place, and only number the part and page in the rest of the places to repeat the transfer from him.

4 .Following the general procedures in force in scientific research in the attribution, graduation, and the introduction of the stranger, and the not famous of the flags ...

-The research consists of an introduction, a preface, two researchers:

Introduction: The importance of research, its problem, its objectives, its limits, its methodology and procedures.

Boot: In it: the definition of renewal in interpretation .

The first topic: Sheikh Mohammed Abu Zahra and his interpretation, and it contains three demands:

The Second Theme: Features of Renewal in the Interpretation of Sheikh Mohammed Abi Zahra .

Conclusion: Highlights and recommendations .

)d) The addition and scientific and practical importance of research: to contribute a practical study in the field of reinterpretation, and to highlight the efforts of one of the contemporary interpreters in this field .

key words:

Renewal - in - interpretation - when - Sheikh - Muhammad - Abi - Zahra–

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وآله وصحبه الطيبين الطاهرين، أما بعد:

فإنه لما كان التجديد مطلبا ملحا في العلوم الإنسانية بما يواكب حركة التطوير والتحديث، وما يرافقها من تحديات متنوعة، ظهرت في العصر الحديث تفاسير اهتمت بالتجديد في التفسير، ولا شك أن أولى العلوم الجديرة بالتجديد علم تفسير كتاب الله تعالى، ليقدم للبشرية ما فيه صلاح دينها ودنياها وما يحقق لها العافية في الدنيا والآخرة، وليكون عاملا في نهوض الأمة من كبوتها. ومن أميز التفاسير المعاصرة التي ظهر فيها التجديد تفسير الشيخ محمد أبي زهرة المسمى (زهرة التفاسير) فهو بالإضافة إلى قيمته العلمية ظهر فيه التجديد في طريقة التفسير والمنهج، ومن هنا كان هذا البحث الموجز، لكشف معالم التجديد في هذا التفسير.

أهمية البحث: تطهر أهمية البحث في كون تفسير أبي زهرة يعد تفسيرا عصريا، يتمشى مع متطلبات العصر وتطور العلوم الدينية والاجتماعية والكونية، فجاء جامعا بين الأصالة والمعاصرة من حيث مصادره الأصيلة التي استمد منها مؤلفه مادته العلمية [(١)]، وبنى تفسيره عليها بشخصيته المستقلة المعهودة.

مشكلة البحث: هذا البحث هو إجابة لسؤال محدد ألا وهو: ما أبرز معالم التجديد في التفسير عند الشيخ محمد أبي زهرة في كتابه زهرة التفاسير؟ وما شواهد تلك المعالم التجديدية؟

أهداف البحث: يهدف البحث إلى إظهار معالم التجديد في التفسير عند الشيخ محمد أبي زهرة في كتابه (زهرة التفاسير)، وشواهد تلك المعالم التجديدية.

حدود البحث: تفسير الشيخ محمد أبي زهرة (زهرة التفاسير) والذي فسَّر فيه القرآن من أول سورة الفاتحة حتى بلغ الآية الثالثة والسبعين من سورة النمل.

منهج البحث وإجراءاته: يقوم البحث على المنهج الاستقرائي لمعالم التجديد عند الشيخ محمد أبي زهرة في تفسيره وفي الدراسات المعنية به، مع إعمال المنهج التحليلي لبيان شواهد معالم التجديد. وفق الإجراءات التالية:

(١) ينظر: منهج الشيخ محمد أبي زهرة في التفسير وعلوم القرآن لمحمد أبو القاسم محمد الحضيري (٢٣١)

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

٥.بيان المراد بالمعلم التجديدي.

٦.اختيار شواهد تدل على المعلم التجديد من تفسير أبي زهرة أو من الدراسات التي تناولت منهجه.

٧.الإحالة إلى تفسير أبي زهرة باسمه (زهرة التفاسير) في أول موضع، والاكتفاء برقم الجزء والصفحة في بقية المواضع لتكرار النقل منه.

٨.اتباع الإجراءات العامة المعمول بها في البحث العلمي في العزو، والتخريج، والتعريف بالغريب، وغير المشهورين من الأعلام...

خطة البحث: يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين:

المقدمة: وفيها أهمية البحث، ومشكلته، وأهدافه، وحدوده، ومنهجه وإجراءاته.

التمهيد: وفيه: تعريف التجديد في التفسير.

المبحث الأول: الشيخ محمد أبو زهرة وتفسيره، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالشيخ محمد أبي زهرة.

المطلب الثاني: التعريف بتفسير الشيخ محمد أبي زهرة.

المطلب الثالث: منهج الشيخ محمد أبي زهرة في تفسيره.

المبحث الثاني: معالم التجديد في تفسير الشيخ محمد أبي زهرة. في تسعة مطالب:

المطلب الأول: تشدّده تجاه الإسرائيليات.

المطلب الثاني: تفنيده شبهات اليهود والنصارى وبيانه تحريفهم وعقائدهم بأسلوب واضح.

المطلب الثالث: العناية بالمفردة القرآنية في سياقاتها المختلفة.

المطلب الرابع: عنايته بالجوانب البلاغية في الآيات، وإبرازه أسرار التعبير القرآني.

المطلب الخامس: بيانه الحكَم التشريعية.

المطلب السادس: عنايته بالتفسير الموضوعي.

المطلب السابع: إشاراته إلى بعض التفسير العلمي بإيجاز.

المطلب الثامن: كتابته مقدمات لكل سورة.

المطلب التاسع: تنزيله الآيات على واقع الناس، وعنايته ببيان المنهج الإلهي لإصلاح المجتمعات المسلمة.

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

التمهيد: تعريف التجديد في التفسير:

التجديد لغة: تصيير الشيء جديداً، يقال: شيء جديد، وجدَّ الثوب والشيء يجِدّ، بالكسر، صار جديداً، وهو نقيض الخَلِق. وتجدَّد الشيء: صار جديدا. وأَجدَّه وجدَّده واستجدَّه أي صيَّره جديداً.

والجِدَّة: مصدر الجديد. وهي نَقِيض البِلَى؛ والأجدَّان والجديدان: الليل والنهار، وذلك لأنهما لا يبليان أبدا[١].

وقد عَرِّف أيضا في اللغة بمعنى وجود شيء كان على حالة ما ثم طرأ عليه ما غيَّره وأبلاه، فإذا أُعيد إلى مثل حالته الأولى التي كان عليها قبل أن يصيبه البِلى والتغيير كان ذلك تجديدا[٢].

وتجديد الدين اصطلاحاً: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما[٣].

ومما عَرِّف به تجديد الدين اصطلاحا أنه إحياء وبعث ما اندرس منه وتخليصه من البدع والمحدثات، وتنزيله على واقع الحياة ومستجداتها[٤].

وأما التفسير لغة: مصدر فَسَّر بتشديد السين مأخوذ من الفَسر وهو البيان والكشف، يقال: فَسرت الكتاب – بتخفيف السين – أُفَسِّره فَسراً، وفسَّرته بالتشديد أُفَسِّره تَفْسِيراً، وقيل: هو مقلوب من السَّفْر بتقديم الفاء على السين، مثل الجذْب والجبذ، والمعنى واحد يقال: أَسفر الصبح إذا أضاء ففيه معنى الكشف والتوضيح، وقيل: مأخوذ من التَّفْسِرة وهي: اسم لما يعرف به الطبيب المرض[٥].

وفي الاصطلاح: عَرِّف التفسير بتعريفات من أجودها:

ما عرَّفه به ابن جزي الكلبي(ت:٧٤١هـ) بأنه:" شرح القرآن وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصه أو إشارته أو نجواه "[٦].

(١) ينظر: تهذيب اللغة (٢٤٩/١٠)، لسان العرب (١١١/٣)، المصباح المنير (٩٢/١)
(٢) ينظر: مفهوم تجديد الدين لبسطامي محمد سعيد (١٤،١٥)
(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي (٢٦٠/١١)
(٤) التجديد في الفكر الإسلامي لعدنان محمد أمامة (١٩)
(٥) ينظر: العين (٢٤٧/٧)، تهذيب اللغة (٢٨٢/١٢)، تاج العروس (٣٢٣/١٣)
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل (١٥/١)

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

وما عرَّفه به الزركشي(ت:٧٩٤هـ) بأنه:" علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه"(١).

وعرَّفه الزرقاني(ت:١٣٦٧هـ) بأنه:" علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية "(٢).

والتجديد في التفسير يعني:" تجديد الفهم لكتاب الله تعالى على ضوء واقع المسلمين المعاصر بعد التقيد بضوابط التفسير وقواعده(٣).

ولقد حدّد الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالديُّ معنى التجديد في قوله: "ونعني بالتجديد في التفسير: التجديدَ الصحيح السليم، المنضبطَ بالضوابط العلمية، الملتزم بالأسس المنهجيّة، التجديدَ القائم على الإبداع والتحسين والجدَّة، والاستفادة من العلوم والمعارف وَالثقافات المعاصرة، وتوسيعِ أبعاد معاني الآياتَ القرآنية، وإحَسان تنزيلها على الواقع الذي تعيشُه الأمّةُ، والعملِ على حلِ مشكلات الأمة على هدي حقائق القرآن الكريم. ولا نعني بالتجديد الخَروج على القواعد وَالضوابط والأسس العلمية المنهجية، والانفلاتَ والفوضى، والقولَ في القرآن بدون علم، وتحريفَ معاني الآيات ودلالاتها، لتوافقَ أهواء هؤلاء، وتتفقَ مع مقررات الغربيين أو الشرقيين، المخالفة لكتاب الله "(٤).

فالتجديد في التفسير: يعني التجديد في مناهجه وطرائقه بما يفي بحاجة العصر ومتطلباته وبما يكشف عن وفاء القرآن وهدايته وتبيانه(٥). مع الأخذ بالاعتبار بضرورة الانطلاق من أصول التفسير.

إنَّ التجديد في التفسير ضرورة، إلاَّ أنّه بحاجة ماسّة إلى آليات وقائية تصونه مما قد يعتريه من خطورة انحرافه عن مساره الصحيح؛ ولعلَّ أسلمها بعثُ علم أصول التفسير وتفعيل وظيفته، فإن ذلك يكفينا همّ العبث بالنصوص الشرعية، ولَيِّ أعناقها،

(١) البرهان في علوم القرآن (١٣/١)
(٢) مناهل العرفان (٣/٢)
(٣) التجديد في التفسير ليحيى شطناوي، بحث منشور في مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، مجلد٦، عدد٢٣، (١١).
(٤) تعريف الدارسين بمناهج المفسرين (٤٥)
(٥) التجديد في تفسير القرآن لأحمد الشرقاوي، بحث منشور في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، الإسلامية، مجلد (١٢)، عدد (٣)، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م (٣٨٩)

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م
كما يضبط لنا عمليةَ الفهم عن الله تعالى، واستنباطَ الأحكام الشرعية من مظانها[١].

المبحث الأول: الشيخ محمد أبو زهرة وتفسيره:

المطلب الأول:التعريف بالشيخ محمد أبي زهرة:

اسمه ونسبه: هو محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة. تنتسب أسرته إلى الشيخ (مصطفى أبو زهرة) الشهير بالششتاوي.

مولده ونشأته: ولد بمدينة المحلة الكبرى إحدى مدن محافظة الغربية بمصر سنة (١٣١٦ هـ-١٨٩٨ م). وتعلم في الكُتَّاب فحفظ القرآن في صدر حياته، ثم التحق بالجامع الأحمدي فتعلم فيه ثلاث سنوات، ثم تعلم بمدرسة القضاء الشرعي تسع سنوات، وفي هذه المدرسة كان تكوينه العلمي. وفي عام (١٩٢٧م) حصل على دبلوم دار العلوم.

وقد تلقَّى الشيخ محمد أبو زهرة علومه على شيوخ عصره البارزين، ومن أشهرهم الشيخ محمد فرج السنهوري (ت ١٩٧٧م)، والشيخ علي الخفيف (ت ١٩٨٧م)، رحمهم الله تعالى.

نشاطه العلمي والعملي: في سنة (١٩٢٧م) بدأ تدريس العلوم الشرعية والعربية بتجهيزية دار العلوم والقضاء الشرعي لمدة ثلاث سنوات، ثم درَّس في المدارس الثانوية سنتين ونصفا.

وبدأ اتجاهه إلى البحث العلمي في كلية أصول الدين في السنوات (١٩٣٣-١٩٤٢م) فعيِّن أستاذا محاضرا للجدل والخطابة، ثم تاريخ الديانات والملل والنحل، وللدراسات العليا في الجامعة وعضوا للمجلس الأعلى للبحوث العلمية. وكان وكيلا لكلية الحقوق بجامعة القاهرة لمدة خمس سنوات، واستمر فيها أستاذا غير متفرغ إلى وفاته. كما درَّس بكلية المعاملات والإدارة بجامعة الأزهر بالإضافة إلى بعض المعاهد كمعهد الخدمة الاجتماعية

(١) معالم التجديد في التفسير المدرسة الإصلاحية أنموذجا (الجزء الأول) لحمّو بن عيسى الشيهاني، مقال منشور في موقع كلية المنار للدراسات الإنسانية

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

وفي عام١٩٥٦م تولى رئاسة لجنة تفسير القرآن الكريم في مصر. كما تولى عضوية عدد من اللجان والمجالس، ومنها: مجلس جامعة الأزهر، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومعهد البحوث الجنائية والاجتماعية.

وقد كان أبو زهرة من العلماء المبرَّزين في علوم القرآن وتفسيره، وفي الفقه وأصوله، وخطيبا مفوها. ولذا كثر روَّاده فخرَّج كثيرا من التلاميذ، والمؤلفات والبحوث. وسخَّر لسانه وقلمه للدفاع عن العالم الإسلامي، كما إنه جهر بكلمة الحق في زمن أشتد به الإرهاب الفكري والسياسي من قبل الحكام الطغاة.

قال عنه الزركلي(ت:١٩٧٦م): " أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره[١]"

وقال عنه محمد رجب البيومي (ت:٢٠١١م):" عُرِف بدفاعه عن القرآن والسنة أمام من يفسرونهما تفسيرا لا يصح ولا يقوم على أصول معتبرة "[٢].

إنتاجه العلمي: للشيخ أبو زهرة إنتاج علمي وفير، فقد بلغت مؤلفاته أكثر من (٤٠) كتابا، منها: (الخطابة) و (تاريخ الجدل في الإسلام) و (أصول الفقه) و (الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية) و (مذكرات في الوقف) و (تواريخ مفصلة ودراسة فقهية أصولية للائمة الأربعة) فأخرج لكل إمام كتابا ضخما: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل. و (الأحوال الشخصية) و (أحكام التركات والمواريث) و (خلاصة أحكام الأحوال الشخصية والوصايا والمواريث) كتبها إجابة لطلب معهد القانون الدولي بواشنطن، وترجمت إلى الإنكليزية. و (الوحدة الإسلامية) و (تنظيم الإسلام للمجتمع) و (الحرية والعقوبة في الشريعة الإسلامية) و (محاضرات في النصرانية) و (تاريخ الديانات القديمة) و (محاضرات في المجتمع الإسلامي) وتفسيره (زهرة التفاسير) توفي قبل أن يكمله ، وانتهى فيه إلى الآية (٧٣) من سورة النمل.

هذا بالإضافة إلى ما نشره في المجلات كمجلة لواء الإسلام، وما يلقيه في الإذاعة من برامج كالتفسير.

وفاته:كانت وفاته –رحمه الله– بالقاهرة مغرب يوم الجمعة ١٣٩٤/٣/١٩هـ، الموافق ١٩٧٤/٤/١٢م.

(١) الأعلام (٦/٢٥)
(٢) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين (٢/٢٩١)

ومن أبرز تلامذته: الشيخ زكريا البري (ت ١٩٩١م)، والشيخ محمد الغزالي السقا (ت: ١٩٩٦م)، والشيخ وهبة الزحيلي صاحب (التفسير المنير) (ت:٢٠١٥م)[١].

وقد كُتب عنه أكثر من رسالة علمية منها:

١. حياة أبي زهرة- رسالة ماجستير- جامعة البنجاب بباكستان. وقد كتبت في حياة الشيخ، وبعث إلى صاحبها أحمد خضر الذي يظهر أنه أحد خريجي الأزهر-بعدة مقالات فيها بيان منهجه.
٢. الإمام محمد أبو زهرة حياته ودعوته-بحث مكمل لنيل درجة الماجستير- كلية الدعوة والإعلام-جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية-١٤٠٤هـ - إبراهيم بن عبد العزيز بن سعد النفيسة.
٣. أبو زهرة عالما إسلاميا حياته ومنهجه في بحوثه وكتبه- رسالة ماجستير -كلية الآداب جامعة عين شمس-١٤١٨هـ - ناصر محمد وهدان.
٤. جهود الشيخ محمد أبي زهرة في الدعوة الإسلامية-رسالة ماجستير-كلية أصول الدين بالقاهرة-منجد السيد عبد الغني شادي.
٥. منهج الشيخ (محمد أبو زهرة) في التفسير -رسالة مقدمة لاستكمال درجة الماجستير في التفسير والحديث-كلية التربية جامعة الملك سعود -١٤٢٢هـ - فهد بن عبد الله بن فريح الناصر.
٦. منهج الشيخ محمد أبي زهرة في التفسير وعلوم القرآن- رسالة ماجستير - كلية أصول الدين جامعة أم درمان الإسلامية ١٤٢٨هـ - محمد أبو القاسم محمد الحضيري.

(١) ينظر في ترجمته: الأعلام (٢٦،٢٥/٦)، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين (٢٧٥/٢-٢٩٢)، من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة (٧٧١/٢-٧٨١)، نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر (١٠٣٢،١٠٣١)، المعجم الجامع في تراجم المعاصرين (٢١٠)، مآذن من بشر أعلام معاصرون (١٤٧)

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

٧. محمد أبو زهرة ومنهجه في تفسيره زهرة التفاسير – رسالة لاستكمال درجة الماجستير في علوم القرآن– كلية الآداب الجامعة الإسلامية بغداد– ١٤٢٩هـ – أمل كاظم زوير الزيدي.

٨. الاستنباط عند الشيخ محمد أبي زهرة في تفسيره (زهرة التفاسير) دراسة نظرية تطبيقية– رسالة دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن –كلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى– ١٤٣٣هـ– منال بنت منصور القرشي.

٩. الإعجاز القرآني في دراسات أبي زهرة– رسالة دكتوراه –كلية أصول الدين جامعة أم درمان الإسلامية ١٤٣٣هـ – محمد أبو القاسم محمد الحضيري.

١٠. الشيخ محمد أبو زهرة وآراؤه الاعتقادية عرضاً ونقدا – رسالة دكتوراه في العقيدة –كلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى– ١٤٢٩/١٤٣٠هـ – فهد بن أحمد بن مسلم النمري.

المطلب الثاني: التعريف بتفسير الشيخ محمد أبي زهرة:

بدأ أبو زهرة في كتابة تفسيره بدعوة من مجلة (لواء الإسلام) التي طلبت منه استكمال تفسير كان قد بدأه الشيخ الخضر حسين[١]ولم يكمله، حيث وصل فيه إلى قوله الله تعالى: ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ (البقرة:١٩٤)، ثم اعتذر وطلب من الشيخ أبي زهرة إكماله، فأكمله حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلۡ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ (الأنعام:٥٤). فمنع من قبل الحاكم في حينه وكانت مدة كتابته في المجلة عشرين سنة، من عام (١٣٧٠هـ)– السنة الخامسة للمجلة– وتوقفت المجلة عن النشر له في شهر محرم عام (١٣٩٠هـ) ، وكان ينشر له في الصفحات الأولى منها[٢]، ثم حاول أن يواصل ما بدأه بعد زوال الحكومة يقول في ذلك:" ولما تكشَّفت الغمة، وزال الحكم الطاغوتي وزالت آثاره التي بقيت بعده

(١) محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الحسني التونسي، عالم إسلامي أديب باحث، يقول الشعر، من أعضاء المجمعين العربيين بدمشق والقاهرة، وممن تولوا مشيخة الأزهر. ت: ١٣٧٧هـ. الأعلام(١١٣/٦)، معجم المؤلفين (٢٧٩/٩)

(٢) ينظر: منهج الشيخ (محمد أبو زهرة) في التفسير(٣٣١،٣٣٠/١)، وقد نشرت له مجلة لواء الإسلام بعد وفاته في أعداد متفرقة تفسير سورة الأعراف الآيات (١-١٢٦).

شهورا، وحملت القلم لأعود إلى أداء الواجب، تعذَّر علي أن أقوم بواجبي مع الكرامة، وكان لي ما كان للمرحوم الخضر – رضي الله عنه– وقد ألحَّ علي الكثيرون من أهل العلم وطلابه أن أتمم ما بدأت في (لواء الإسلام) وتكرر الطلب، فوجدت أن من الواجب علي أن أقوم بكتابة التفسير مستعينا بالله، متوكلا عليه، ضارعا إليه أن يمن بتوفيقه "[١] .

ثم ذكر أنه ابتدأ الكتابة من أول القرآن إلى نهاية ما كتبه الشيخ الخضر– لأنه لم يفسره من قبل– ليكون التفسير كله نسقا واحدا، ثم واصل التفسير حتى وافاه أجله قبل أن يتمه وبلغ فيه الآية (٧٣) من سورة النمل.

والملاحظ أن المصادر التي عنيت بمناهج المفسرين أغفل كثير منها هذا التفسير ولم تُعن بدراسة منهجه، وهذا –والله أعلم –راجع إلى كون هذا التفسير كان مفرقا بين أعداد مجلة اللواء وما كتبه الشيخ، ولم يخرج مطبوعا مضموما بعضه إلى بعض إلا بعد وفاته، وقد عنيت بإخراجه ابنته حياة النفوس، ويقع في عشرة مجلدات[٢].

وقد كتب الشيخ أبو زهرة قبل البدء بالتفسير مقدمة قصيرة تحدث فيها عن نعمة القرآن وارتباطه به، وكيف سار في تفسيره، واعتذر عن كتابة مقدمة مطوَّلة يكون فيها الحديث عن نزول القرآن وجمعه، وبيان إعجازه، وقصصه وجدله...إلخ معللا ذلك بأنه مما يتسع فيه البحث وهو حقيق بأن يكون مقصودا بذاته لا بالتبع، مما حداه لإخراجه في كتاب مستقل ألا وهو (المعجزة الكبرى)[٣]. ونصَّ على أنه يغني عن كتابة مقدمة لهذا التفسير.

ثم كتب افتتاحية بين فيها معجزة القرآن وشيئا من فضائله، ثم انتقد أمرين في تبيين معاني القرآن نهجهما المفسرون:

(١) زهرة التفاسير (٢٢/١)
(٢) طبعة دار الفكر العربي- القاهرة .
(٣) طبع بدار الفكر العربي ، ويقع في (٦١٤) صفحة، كتب الشيخ مقدمته في أول رمضان عام ١٣٩٠هـ .

الأول: كون كتب المفسرين المطولة تبعثر المعاني السامية منه – وكل معانيه سامية– وسط مضطرب من الأقوال في علم الكلام ومذاهبه، وآراء الفقهاء، واستدلال كل صاحب مذهب على مذهبه...والموجزات من التفسير يتجلى فيها القرآن مشرقا نيِّراً كما هو في ذاته، ولكن لا تخلو من توجيه النص القرآني بالمذهب الأشعري أو المعتزلي، وإن كانت لا تثير جدلا حول المعاني القرآنية إلا قليلاً.

الثاني: ضرب مثالين على تطابق أقوال المفسرين في فهم آيات لا يرى أنها متفقة على المبادىء المقرَّرة في القرآن، كقولهم برفعة الأغنياء على الفقراء في قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الزخرف:٣٢).

وقولهم إلى عهد ابن كثير في تفسير الآيات: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ . **إلى قوله تعالى:** ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (الأحزاب:٣٦-٤٠). **إنها في عشق النبي ﷺ لزينب بنت جحش – رضي الله عنها–، وكتاب الله أعلى من أقوالهم، ومقام الرسول ﷺ الأمثل أعلى من أقوالهم[1].**

ثم نبَّه إلى أمور ثلاثة:

أولها: أنه لا يتجه إلى الأغاريب، إلا عند الاضطرار لتوجيه المعاني وتقريب الناس من إدراكها، وذلك نادر وليس بالكثير.

(١) ينظر: (١٨/١)

ثانيها: لا يذكر من القراءات إلا ما يترتب عليه اختلاف في المعاني مما يدل على إعجاز القرآن.

ثالثها: الإطالة في بعض المواضع قصدا لتقريب الناس من معاني القرآن التي تكون موجزة ألفاظها ثرية معانيها، ولا تحمَّل الآيات فيما يتعلق بالكون فوق ما تحتمل أو غير ما تحتمل[١].

وأما التمهيد فهو أوسع من الافتتاحية[٢]، تحدث فيها عن تعلقه بالقرآن الكريم وممارسته تدريس التفسير ثم عرض منهجه في تفسيره، وتكلم عن التفسير بالرواية، والتفسير بالرأي، والطريقة المثلى التي توصل إلى الغاية في فهم القرآن، وأشار إلى ما اختلط بتفسير القرآن من علم الكلام وآراء الفقهاء، وتناول في الأخير قضية النسخ في القرآن الكريم، ثم شرع في تفسير سورة الفاتحة.

(١) ينظر: (١٩/١)
(٢) ينظر: (٢١/١-٤١)

المطلب الثالث: منهج الشيخ محمد أبي زهرة في تفسيره:

القارىء المتتبع لتفسير أبي زهرة يمكنه أن يلمح التجديد في طريقته ومنهجه في التفسير، ويمكن رصد النقاط التالية كمحدد لطريقته في تفسيره:

١. كتب لكل سورة مقدمة، يعرض فيها موضوعاتها ومضامينها، ويكشف عن مبادئها والحقائق التي تسجلها، وهذه المقدمات متفاوتة في الطول والقصر.
٢. يتناول جملة من الآيات متتابعة يربطها موضوع واحد، فيفسرها تفسيرا تحليليا.
٣. يعتبر من التفاسير المتوسطة، فالمؤلف يختصر في بعض المواضع ويطيل في مواضع أخرى.
٤. لم يسر في تفسير الآيات على ترتيب واحد، فهو يقدم أحيانا المعنى العام أو موضوع الآيات ثم يشرع في التفسير، وأحيانا العكس، وأحيانا يقدم سبب النزول، ومرة يؤخره، فهو يبدأ بحسب المناسب في رأيه فيما يكون عونا في فهم الآية.
٥. ينقل عمن سبقه بالنص حينا وأحيانا ملخصا معزوا، وغير معزو في أحيان أخرى، وله مقدرة عالية في التلخيص.
٦. إذا لم ينص على اختيار قول في الآية المختلف فيها، فإن تأخيره أحد الأقوال وإن لم يبسطه مع بسط غيره قد يكون أراد ترويجه والأخذ به.
٧. يشير إلى هدايات الآيات وما يستنبط منها من أحكام(١).

وأما منهجه في التفسير فقد نص في التمهيد على منهجه حيث دعا إلى أن يكون للقرآن تفسير تتولاه جماعة علمية من أولي العصبة من العلماء، مع شكواه من عدم وجود التعاون على ذلك، داعيا في الوقت نفسه إلى التفسير العلمي حيث يضاف ما يراه علماء الكون في آيات الله الكونية، على أن لا يطوَّع القرآن لنظرية مفروضة، ولا أن تُرهق ألفاظه لتحتمل نظرية لم يتحقق صدقها، ولكن ليستعان به لتأييدها، ثم أكد على تقديم نصوص القرآن والسنة على غيرها في تفسير القرآن، منبها على أنه يرد ما ورد في السنة معارضا للقرآن، كما يرد ما يجعلها فوق القرآن ممثلا على ذلك بسحر النبي ﷺ فهو يقطع بردِّه- مهما كان راويه من ثقة فهو غير منزه عن الخطأ والنسيان-

(١) ينظر: منهج الشيخ (محمد أبو زهرة) في التفسير (١/١٦٦-١٦٩)

تنزيها للرسالة المحمدية الإلهية، وخشية من مشابهة أهل الجاهلية، ولما في اعتقاده من إيثار راو على القرآن وعلى الرسالة المحمدية كلها![١].

وهذا مما لا يوافق عليه في إنكاره للثابت الصحيح من السنة وردِّه بدعوى تنزيه الرسالة المحمدية، فلا تعارض بينهما بل هو مما يقطع ببشرية النبي ﷺ، وليس المقام مقام رد ومناقشة.

ثم بيَّن منزلة التفسير النبوي للقرآن، وتفسير الصحابة ﷺ، والتابعين، وضوابط قبولها مفرِّقا بين أصحاب بيعة الرضوان ومن جاء بعدهم، فاللاحقون إنما تعتمد أقوالهم فيما له صلة باللغة والبيان، ونبَّه إلى أثر الإسرائيليات وخطورتها وضرورة صيانة تفسير القرآن عنها.

ثم ناقش مسألة تفسير القرآن بالرواية، وأن العمدة تقديم الأثر إلا إذا كان خبر آحاد يخالف قطعيا يقينيا محسوسا مما أثبته العلم فيقطع ببطلانه، وكذلك ما يثبت علم علماء الكون خلافه ثبوتا قطعيا بالبرهان القاطع الذي لا يتطرق إليه ريب، كما ذكر ذلك الغزالي أنه يردّ أو يؤوَّل. مؤكدا ذلك بقوله:" وإنما الأخبار الصحيحة – أي من حيث السند– التي تكون تفسيرا للقرآن ولا تجوز مخالفتها هي الأخبار التي لا يطعن في صحة متنها، ولا تخالف أمرا يقطع العقل بخلافه"[٢].

وفي مسألة التفسير بالرأي يؤيد أبو زهرة الغزالي في أن الفهم لكتاب الله تعالى باب متسع لكل من عنده أداة الفهم لعلم القرآن[٣]، ثم يذكر الطريقة المثلى التي توصل إلى الغاية في فهم القرآن، وتعرف معانيه، وإدراك دلائل إعجازه ألا وهي الاعتماد على النقل والعقل، فلا يصح الاقتصار على النقل وحده، وإنما النظر الأمثل هو أن يعتمد على العقل والرأي وعلى السماع من أقوال الرسول ﷺ في فهم القرآن. ويقول:" كلما اتسع أفق العقل البشري في فهم الكون والحقائق والشرائع اتسع فهمه للقران.. وهكذا نجد أن كل تال للقران يدرك من معانيه بمقدار إدراكه وعلمه "[٤].

وأما علم الكلام ومجادلات أهل المذاهب فإن أبا زهرة لم يرتض ما سار عليه بعض المفسرين من إدخالها في تفاسيرهم يقول في ذلك:" نتَّجه– بعون الله تعالى–

(١) ينظر: (٢٤/١)
(٢) (٢٩/١)
(٣) ينظر: إحياء علوم الدين (٢٨٨/١)
(٤) (٣٦/١)

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

إلى المعاني الواضحة البينة، من غير أن ننزلها من مقامها السامي إلى مضطرب المذاهب والآراء "[١].

وفي المسائل الفقهية يذكر أبو زهرة أن مهجه الإجمال والبعد عن التفصيل، مستعينا فيما يحتاج إلى بيان بالسنة القولية والعملية في العبادات وفي الأنكحة وغيرها، فلا يتعرَّض للخلاف الفقهي إلا في أضيق دائرة، مما يوجبه توضيح المعنى، فلا تخضع المعاني لآراء الفقهاء بل تخضع آراء الفقهاء لمعاني القرآن.

وفيما يتعلق بقضية النسخ في القران الكريم يرى أن القران الكريم نسخ الشرائع السابقة التي أتى بها الوحي فما بقي منها أبقاه القرآن كبعض أحكام القصاص وكتحريم الربا، وكان النص عليه في القران دليلا على بقائه.

ويضيف أن السنة هي التي جرى فيها النسخ لأنها تتولى علاج المسائل الوقتية ويختلف الحكم الوقتي في بعض الأوقات عنه في بعضها. ويقول:" القرآن الكريم سجل هذه الشريعة الخالدة بل سجل الشرائع السماوية ومعجزات النبيين جميعا، وما نسخ منها أشار إلى نسخه، وما بقي منها صرَّح ببقائه... ولذلك فنحن نرى ما رآه من قبل أبو مسلم الأصفهاني(ت:٣٢٢هـ)[٢]. وهو انه لا نسخ في القران قط؛ لأنه شريعة الله تعالى الباقية إلى يوم القيامة، ولأن النسخ لم يثبت بنص عن النبي ﷺ، ولم يصرَّح النبي ﷺ بنسخ آية من القرآن، وما جاء من عبارات النسخ في القران إنما في نسخ المعجزات الحسِّيَّة بالقران الكريم، ولأن النسخ يقتضى أن تكون آيتان في القرآن موضعهما واحد، وإحداهما مثبتة والأخرى نافية، ولا يمكن الجمع بين النفي والإثبات، وما ادعي النسخ فيه التوفيق بينهما سهل ممكن، وما أمكن التوفيق فلا نسخ! وقد اشتركنا في كتابة التفسير مع بعض العلماء ولم نجد آيتين متعارضتين لم يمكن التوفيق بينهما، وقد طُبع ذلك التفسير وسمى بـ(المنتخب)[٣] طبعته إحدى الجامعات الإسلامية، والله الهادى إلى سواء السبيل "[٤].

---

(١) (٣٩/١)

(٢) محمد بن بحر الأصفهاني ولد سنة ٢٥٤ هـ، وهو متكلم معتزلى له آراء غريبة، فى تفسيره (جامع التأويل لمحكم التنزيل) على مذهب المعتزلة، ردَّ عليه الرازي في تفسيره الكبير ردا مقحما في كل آية خالفه فيها. معجم الأدباء (٢٤٣٧/٦)، لسان الميزان (٧/٦)

(٣) يقع هذا التفسير في مجلد وهو مطبوع أكثر من طبعه، وعلى أكثر من موقع في شبكة المعلومات (الإنترنت)

(٤) زهرة التفاسير ٤١/١

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

هذا هو منهج أبو زهرة كما بيَّنه وأوضحه بين يدي تفسيره، ويبقى الأهم وهو مدى تطبيقه لهذا المنهج في تفسيره، وميزاته والمؤاخذات عليه[١]، ولكون هذا البحث إنما يسلط الضوء على التجديد في تفسير أبي زهرة سأكتفي بذكر وصف الاتجاه الذي يمكن أن يصنف هذا التفسير فيه، والذي ظهر لي أنه الاتجاه الاجتماعي لما يلي:

أولا: الأصل في كتابة هذا التفسير وما أحاط به من ملابسات، فقد كان يكتبه أبو زهرة في مجلة عامة على حلقات يتابعها الكثيرون من المتعلمين وعامة الناس، والأسلوب الكتابي للتفسير في المجلة حيث يركز على الجوانب الاجتماعية الأخلاقية، بلغة سهلة واضحة.

ثانيا: المدة الزمنية الطويلة – أكثر من عشرين سنة– وما صحبها من أحداث وتغيرات سياسية واجتماعية، ظهرت آثارها في كتابات الشيخ ومنها التفسير.

ثالثا: وقفات الشيخ في تفسيره مع كثير من القضايا الاجتماعية، والأسرية، والمعاملات المالية، وإبرازه لهدايات السور والآيات، والتركيز على قضية الإصلاح للمجتمعات الإسلامية.

رابعا: المنهج الإصلاحي الذي سار عليه المؤلف في حياته، وما واجه بسببه من تضييق، حال دونه وإيصال رسالته، مما حداه لكتابه هذا التفسير إلى آخر لحظات حياته.

وهو اتجاه يكاد أن يكون جديدا في التفسير قد سلكه عدد من المفسرين المعاصرين، كمحمد رشيد رضا في تفسير المنار، والمراغي في تفسيره، والشيخ عبد الرحمن الدوسري في تفسيره (صفوة الآثار والمفاهيم)، وهذا الاتجاه يعنى بالآيات التي تتناول علاج الأمراض الاجتماعية، والمشكلات السياسية، والقضايا الأسرية، فيتناولها المفسر بتوسع وبسط أكثر من غيره من المفسرين، باحثا من خلالها عن الحلول، ومبرزا للهدايات القرآنية في الإصلاح الاجتماعي[٢].

وتبقى الإشارة هنا إلى أمر مهم ينبغي ملاحظته ألا وهو القيمة العلمية العالية لتفسير الشيخ محمد أبي زهرة، فقد كتبه الشيخ حال نضجه العلمي ويكفي دليلا على

(١) ينظر: منهج الشيخ (محمد أبو زهرة) في التفسير(٢/٦٨٤-٦٨٦)، محمد أبو زهرة ومنهجه في تفسيره زهرة التفاسير (٣٠٦-٣١٠)

(٢) ينظر: التفسير والمفسرون للذهبي (٢/٤٠١)، بحوث في أصول التفسير ومناهجه للرومي (١٠٤،١٠٥)

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

ذلك أنه مات ولم يكمله، يقول محمد رجب البيومي:" كانت ثقافة أبي زهرة ثقافة موسوعية، إذ لا تجد بابا من أبواب التراث الإسلامي إلا وقد نهل منه أصفى ما يحويه، حتى إذا امتزج بنفسه وخالط فكره، وجد في نفسه دافعا إلى التعبير عما استوعب من فكر، وما شعر من خالجة، وما انتظم في عقله من مقدمات صادقة، تؤدي إلى أصدق النتائج، كذلك نجده يفسر كتاب الله في أعداد مجلة (لواء الإسلام) تفسيرا يحمل طابع المثقف المستنير، في غير فضول يلجأ إلى الاستكثار والتزيُّد، وقد نهج منهج الإمام محمد الخضر حسين إذ سبقه إلى التفسير بالمجلة، وزاد عمله بسطة في الإيضاح، وكرًّا على معارضة من يقولون في القرآن بالهوى لا بالرأي"[١].

المبحث الثاني: معالم التجديد في تفسير الشيخ محمد أبي زهرة:

المطلب الأول: تشدده تجاه الإسرائيليات:

الإسرائيليات: كل ما تطرَّق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما، بل توسَّع بعض المفسرين والمحدِّثين فعدُّوا من الإسرائيليات ما دسَّه أعداء الإسلام من اليهود وغيرهم على التفسير والحديث من أخبار لا أصل لها في مصدر قديم، وإنما هي أخبار من صنع أعداء الإسلام صنعوها بسوء نية وخبث طوية ثم دسوها على التفسير والحديث ليفسدوا بها عقائد المسلمين[٢].

والموقف الصحيح من الإسرائيليات بيَّنه ابن تيمية(ت:٧٢٨هـ) بقوله:" ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذّبه وتجوز حكايته؛ لما تقدم. وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر

(١) النهضة الإسلامية الحديثة في سير أعلامها المعاصرين (٢٨٦/٢)
(٢) الإسرائيليات في التفسير والحديث (١٤،١٣)

ديني؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرا. ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك "[١].

وقد أفصح أبو زهرة عن موقفة من الإسرائيليات في التمهيد الذي كتبه قبل أن يبدأ تفسيره فقال:" يجب التنبيه إلى أن الواجب العلمي إبعاد الإسرائيليات عن تفسير القرآن، وتنقية كتب التفسير منها، وإذا قيل إن منها ما يوافق النصوص القرآنية، ولا يخالفها، نقول إن في القرآن غني عنها، والأكثر فيه تهويش على معاني القرآن، وإثارة للأوهام الكاذبة "[٢]. وهذا التشدد في قبول الإسرائيليات أخذ به أيضا بعض المفسرين المعاصرين [٣].

ولأبي زهرة وقفات مع الإسرائيليات تجلّي رأيه فيها، ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ ﴾ [البقرة:٨٩].

يقول أبو زهرة:" ومعنى تصديق الكتاب لما معهم أنه تصديق لما معهم من كتاب كانوا يكتبونه بأيديهم، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، حتى يجيء بعض البهتانيين الكاذبين من دعاة نصرانية بولس، فيقولون إن القرآن صدّق ما بأيديهم من محرَّف التوراة المنحرفة والإنجيل المحرف، إنما صدّق القرآن الأوامر الأصلية مما اشتمل المواثيق التي أخذت عليهم بقوة، ولم يصدّق الذي حرَّفوه ولا المنحرف عن الحق والخلق المستقيم، كالذي اشتملت من أن نبي الله داود زنى بحليلة جاره، وأرسله إلى الميدان ليخلو له وجه عشيقته، ذلك إفك بين لا يليق بأخلاق نبي جعله الله تعالى خليفته في الأرض ولا يليق بذي خلق كريم، فهل هذا ما صدّق به الكتاب ما معهم،

(١) مقدمة في أصول التفسير (٣٩)، وينظر: شرح أصول في التفسير لابن عثيمين (٣٥٣-٣٦٣)
(٢) (٣٠/١)
(٣) أعرض بعض المعاصرين عنها كالشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره. ينظر: بحوث في أصول التفسير ومناهجه للرومي (١٦٠)

ذلك هو الضلال البعيد، ولن يكون في كتاب منزل من عند الله، ولا يدعيه إلا الذين هوت نفوسهم إلى مثل هذا الحضيض الأوهد من الأخلاق "[١].

وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ﴾ [المائدة:٢٣]. يقول أبو زهرة:" هذان رجلان من بني إسرائيل أُعطيا نعمة الصبر وقوة الإيمان، قد خالفا الذين قالوا: لن ندخلها حتى يخرجوا، وقد ذكر المفسرون اسم الرجلين، كما جاء في التوراة ، والآية لا تحتاج في فهمها إلى اسميهما، ولكن تحتاج إلى معرفة أوصافهما، ومؤدى قولهما، وقد ذكر الله ﷻ لهما وصفين: أحدهما – أنهم من الذين يخافون، وثانيهما – أن الله أنعم عليهما "[٢].

وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة:٢٧]. يقول أبو زهرة:" ابنا آدم، يقول المؤرخون وبعض المفسرين فيهما، كما جاء في التوراة هما هابيل التقي وقابيل الباغي، ويقول أكثر المفسرين: إنهما ولدا آدم من صلبه، ولكن الحسن من التابعين قال: إنهما من بني إسرائيل ولعل مما يشير إلى ذلك قوله تعالى من بعد: ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ ﴾ إلخ [المائدة:٣٢]. ولا يهمنا أن نعرف من هم، ولكن الذي يهمنا أن نعرف أن ما يومي إليه النص من حقائق، والقصص صادق وواقع، ولكن نترك ما تركه القرآن ولا نهيم في إسرائيليات صادقة أو كاذبة، والنص القرآني واضح في مقصده من غير حاجة إلى ما يوضحه من خارجه "[٣].

(١) (٣٠٩/١، ٣١٠)
(٢) (٢١١٤/٤)
(٣) (٢١٢٢/٤)، وينظر أيضا: (١٣٨٠/٣)، (٤٦٦١/٩)

وفي بعض المواضيع يورد أبو زهرة الروايات الإسرائيلية في تفسيره للقصص القرآني وينبه على أنها لم تثبت بسند صحيح عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه، ولا يذكر ما فيها من تفصيلات لأنها صارفة للعبرة في القصص القرآني ولا مزيد كمال فيها، إذ يقول في تفسيره لقوله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [البقرة:٢٤٣].:" قد وردت في ذلك أخبار وروايات لم تثبت بسند صحيح عن النبي ﷺ الذي بين الكتاب للناس، ولا عن أحد من أصحابه الذين تلقوا ذلك البيان، ومن تلك الروايات أنهم قوم من بني إسرائيل خرجوا هاربين من الوباء فنزلوا وادياً، فأماتهم الله ثم أحياهم اعتباراً وإجابة لدعاء نبي من أنبيائهم.

وفي رواية أخرى أنهم قوم من بني إسرائيل فروا من الجهاد مع نبيهم، فأماتهم الله ليعلمهم أنه لا ينجيهم من الموت شيء، ثم أحياهم ليجاهدوا.

ورواية ثالثة تقول: إن أولئك القوم كانوا من بني إسرائيل حرَّضهم ملك من ملوكهم على الجهاد فخرجوا حذر الموت، فأماتهم الله سبحانه ثم أحياهم.

وفي كل رواية من تلك الروايات تفصيلات لا حاجة إلى ذكرها، ولقد نقل القرطبي في أحكام القرآن بعد ذكر هذه الروايات ما نصه: قال ابن عطية: وهذا القصص كله لين الأسانيد "[١].

المطلب الثاني: تفنيده شبهات اليهود والنصارى وبيانه تحريفهم وعقائدهم بأسلوب واضح:

لأبي زهرة عناية بالبحث في الديانات وقد مرَّ ذكر كتابيه محاضرات في النصرانية، وتاريخ الديانات القديمة، ولذا نجده في مواضع من تفسيره يتناول بيان عقيدة الفرق اليهودية[٢]، والنصرانية[٣]. كما أنه يرد على عقيدة اليهود والنصارى خاصة ويناقشهم بالأدلة العقلية لإثبات وحدانية الله ﷻ وبطلان عقائدهم[٤]، ففي تفسير قوله

(١) (٨٥٩/٢، ٨٦٠)، محمد أبو زهرة ومنهجه في تفسيره زهرة التفاسير (١٠٨، ١٠٩)، وينظر: المحرر الوجيز (٣٢٨/١)، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٠/٣)
(٢) ينظر: (٢٢٨١/٥)، (٣٧٥٩/٧)
(٣) ينظر: (٢٣١٠/٤)، (٢٢٩٥/٥)
(٤) محمد أبو زهرة ومنهجه في تفسيره زهرة التفاسير (١٧٣)

تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ [الآيات:٥٩-٦٣ آل عمران]. يقول أبو زهرة:" في هذه الآيات يبين الله ﷻ حقيقة تكوين عيسى، ويزيل وجه الغرابة في ولادته، وأن الله تعالى لا يتقيد بالأسباب والمسببات لأنه خالق كل شيء، وهو الفاعل المختار، يخلق الأشياء بإرادته واختياره، ولا تصدر عنه المخلوقات صدور المعلول عن علته، كما يتوهم الماديون الذين عاصروا عيسى عليه السلام، والذين يعاصروننا اليوم، وإن الله سبحانه كما خلق الإنسان الأول آدم من غير أب ولا أم، فكذلك خلق عيسى من غير أب ...وفي هذا التمثيل احتجاج على النصارى الذين أَلهوا المسيح عيسى ابن مريم لأنه خلق من غير أب ، واعتبروه ابن الله والاحتجاج من وجهين :

أولهما: أنه إذا كان خَلْق عيسى من غير أب مسوِّغا في زعمهم لأن يكون إلها أو ابن إله، فأولى بذلك آدم؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم، ولا أحد من الناس ادعى ألوهية آدم لهذا السبب فيبطل حينئذ ذلك الزعم الباطل لانهيار الأساس الذي قام عليه.

ثانيهما : أن الله ﷻ إذا كان قادرا على خلق إنسان حي من غير أب ولا أم ، ومن مادة ليس من شأنها أن يتكون منها إنسان حي، فأولى أن يكون قادرا على خلق إنسان من غير أب ومن أم هي إنسان يلد ويحيا ويموت وهى وعاء لحياة الإنسان وهو جنين لذا فلا غرابة في خلق عيسى من غير أب، وما كان يصح أن يكون هذا دافعا لهذا الضلال المبين "[1].

وعند تفسيره قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [البقرة:١١٦]. يورد أبو زهرة الأدلة التي تدل على بطلان زعمهم في اتخاذ الله سبحانه ولداً حيث " بين أن النصارى ومن قاربهم من اليهود قالوا: ﴿ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً ﴾ ، أي أنه سبحانه هو الذي اختار ولداً، أوجعله ولداً، ولقد ردَّ الله تعالى عليهم ذلك الزعم بأربعة أدلة تدل على بطلان ذلك الزعم الوثني الذي يشابه مقالة عبدة الأصنام :

(١) (١٢٤٨/٣-١٢٥٠)

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه عن ذلك وتقدَّست ذاته العلية أن تكون مشابهة لأحد من الحوادث الذين يتوالدون ويتناسلون، فهو الأحد ليس كمثله شيء، ولو كان له ولد لكان مشابهاً للحوادث ولكان له زوج، ولو كان له ولد تولَّد منه لكان له والد، وهو منزه عن ذلك فهو الواحد الأحد الذي ليس له والد ولا ولد.

الدليل الثاني: أنه لو كان له ولد لكان مفتقراً إلى ما يكمل وجوده، لأن الولد امتداد لأبيه، فهو كمال وجوده، والله تعالى ليس بمفتقر لأحد، ولأنه الكامل المنفرد بالكمال، وقد أشار سبحانه إلى هذا الدليل بقوله : ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾، والمعنى أن له الملك الكامل والسلطان التام في السموَات والأرضَ، فيستحيل أن يكون محتاجاً إلى ولد، بل كل الوجود في سلطانه، وليس فقيراً إلى ولد يعينه.

الدليل الثالث: إن الوالد قد يحتاج للولد لكون مسخَّراً في حاجاته يقوم بحق الوالد عليه، والله لا يحتاج إلى ذلك، لأن الوجود كله في قبضة يده، وكلهم خاضعون له، ولذلك قال: ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾.

الدليل الرابع: إن اللهَ تعالى هو الذي أبدع السموات والأرض على غير مثال، وخلق الوجود كله، فهو الذي ذرأ من في السموات والأرض، وكلهم عبيده، كما قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم:٩٣]. فكيف يكون له ولد، وأنه إذا كان له ولد، فإنه يكون من جنسه، ويكون من مثله والله المبدع للوجود والخالق منزَّه عن أن يكون بعضه من الحوادث، والولد بعض أبيه وبضعة منه "[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة:٥٧]. يقول أبو زهرة:" (من) ههنا بيانية فيها بيان لأولئك الذين يستهزئون ويلعبون بدين الله دين الحق، وهم اليهود والنصارى، وعبَّر عنهم بـ (أوتوا الكتاب) لأن أصل شرعهم ينتمي إلى كتاب منزل، وإن حرَّفوا فيه الكَلِم عن مواضعه وغيَّروا وبدَّلوا

(١) (١/٣٧٨-٣٧٧)، وينظر: محمد أبو زهرة ومنهجه في تفسيره زهرة التفاسير (١٧٤،١٧٣)

ونسوا حظا مما ذكروا به، وهم كفار وليس كفر أعظم من كفر، إلا أن تكون بقية علم عندهم، وهى لا تجعل لهم مقاما أدنى في الكفر، ولو كانت تجعل في الإمكان التلاقي في بعض المعلومات الدينية التي لم يعبثوا بها.

وقد تكلم العلماء فقال الأكثرون: إن الكفار هم المشركون، وأطلق عليهم الكفار دون إطلاقه على أهل الكتاب، وقد علله بعضهم بأن كفرهم أشد، وعندي أنهم جميعا كفار، لقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ ﴾ [البينة:١]. وليس كفرهم أعظم من كفر أهل الكتاب؛ لأن كفرهم عن جهل، وكفر المشركين عن علم، ولا يمكن أن يكون الجهل عنصرا مشدَّدا، والعلم عنصرا مخفَّفا، ولكن ذكروا بوصف الكفار؟ لأنه لا وصف لهم غيره إذ لم يؤتوا بكتاب، على أننا نرى أن عطف الكفار على أهل الكتاب من باب عطف العام على الخاص، فكلمة كفار تشمل كل كافر بمحمد ﷺ، على أنه خصَّ أهل الكتاب بالذكر، لأنه الموضوع من الأصل في عدم موالاة المؤمنين لليهود والنصارى، ثم عمَّم الحكم على الجميع ممن كفروا بمحمد ﷺ"[1].

(١) (٢٢٦٠/٥)، وينظر: (١٩٥٣/٤)، (١٩٦٩/٤)، (٢٢٤١،٢٤٣٤/٥)

المطلب الثالث: العناية بالمفردة القرآنية في سياقاتها المختلفة:

أولى أبو زهرة المفردة القرآنية في سياقاتها المختلفة عناية خاصة، ويظهر في هذا اعتماده كثيرا على مفردات القرآن للراغب الأصفهاني(ت:٥٠٢هـ)[١]، فله مركز الصدارة بين كتب اللغة التي اعتمدها[٢].

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسيره قول الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة:٢١٩]. يقول أبو زهرة:" والعفو معناه: السهل، أو الزائد فإن كلمة عفو لها ثلاثة إطلاقات أولها الترك، كما قال تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ [المائدة:٩٥]. ...أي تركه وتجاوز عنه، وبمعنى السهل، كما في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩]. وبمعنى الزيادة. والمعنى هنا السهل الزائد عن الحاجة. سألوا عما ينفقون من مال في البر، فقال لنبيه ﴿ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ أي السهل الزائد عن حاجتكم الأصلية الذي لا يشق عليكم بذله، إن استقامت النفوس، وامتلأت القلوب بالإيمان، وعمرت بالرحمة وأجابت نداء الرحمن "[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٣]. يقول أبو زهرة:" أصل كلمة حرث تُطلق على إثارة الأرض لإلقاء البذر فيها، وقد تطلق كلمة الحرث على الأرض المحروثة نفسها، فتسمى الأرض المحروثة المهيأة للزراعة أو المزروعة فعلا حرثا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القلم:٢٢]. ثم أطلقت كلمة حرث في الآية الكريمة وأريد بها الزوجة على سبيل التشبيه، وقد قال في وجه التشبيه الراغب الأصفهاني: بالنساء زرع ما فيه بقاء نوع الإنسان، كما أن بالأرض زرع ما به بقاء أشخاصهم. ففي الكلام إذن تشبيه للزوجة

(١) ينظر: منهج الشيخ محمد أبو زهرة في التفسير (١/١٣٦-١٥٧)
(٢) محمد أبو زهرة ومنهجه في تفسيره زهرة التفاسير (٢٩١)
(٣) (٢/٧٠٩)

بالحرث؟ ووجه التشبيه الذي ذكره كان بين الزوجة وبين الأرض الخصبة المنتجة من حيث إن كليهما يمدّ الوجود الإنساني؟ فالزوجة تمده بعنصر تكوينه وإنشائه، والأرض تمده بالزرع الذي يكون به بقاؤه "[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٨]. يقول أبو زهرة: " وأصل الظلم معناه النقص، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ [الكهف:٣٣]. ثم أُطلق على نقص الحقوق وهضمها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾ ﴾ [طه:١١٢]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ﴾ [النساء:١١٠]. ثم أطلق الظلم على وضع الأمر في غير موضعه، حتى لقد قالوا فيمن حفر الأرض ولم تكن موضعا للحفر إنه ظلمها، ويقال عن التراب المظلوم، وعن الأرض المظلومة، ولقد قال الراغب في معنى الظلم:(الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته ومكانه). والظلم الذي نفاه ﷻ عن نفسه عام لا يخص نوعا دون نوع "[2].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ ﴾ [النساء:٢٤]. يقول أبو زهرة:" وأَحصن متلاقية في المعنى مع كلمة الحصن، وهو المكان المحكم الذي يتقى به أذى العدو، فمعنى أَحصن المرأة جعلها في حصن الفضيلة، وقد جاء في مفردات الأصفهاني:(يقال حصان للعفيفة، ولذات حرمة، وقال تعالى: ﴿ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا ﴾ [التحريم:١٢]. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ ﴾ [النساء:٢٥]. أي تزوجن، و " أُحصِّن " زوِّجن، والحصان في الجملة المحصنة إما بعفتها أو بتزوجها أو بمانع من شرفها وحريتها).

(١) (٧٣٦/٢)
(٢) (١٣٥٣/٣)

وبهذا يتبين أن المرأة المحصنة هي التي صانت نفسها وتحصَّنت بحصن الفضيلة والبعد عن الفحشاء، وإحصانها بزواجها، أو بعفافها المجرد، أو بحريتها وشرفها، ولذلك تُطلق كلمة المحصنات، ويراد بها أحيانا العفيفات، وتطلق بمعنى الحرائر، وفي هذه الآيات استعملت كلمة المحصنات بالمعاني الثلاثة، فقوله ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ المراد المتزوجات، وقوله تعالى: ﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [النساء:٢٥]. المراد الحرائر، وقوله: ﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ﴾ [النساء:٢٥]. المراد العفيفات، وقوله تعالى: ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النساء:٢٥]. المراد بهن الحرائر. ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ المحصنات هنا المتزوجات اللائي يكن في عصمة أزواجهن، ويدخل في عموم المحصنات المعتدَّات "[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [هود: ٨]. يقول أبو زهرة:" فالأُمَّة هنا بمعنى مدة، وكلمة أمَّة وردت في القرآن بمعان مختلفة، فتجيء بمعنى المدة كهذه الآية، وتكون بمعنى الجماعة في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص:٢٣]. وتُطلق على الرجل المهيب الجامع لمكارم الأخلاق كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل:١٢٠]. وتطلق بمعنى الملة كقوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف:٢٢] "[2].

(١) (١٦٣٧،١٦٣٦/٣)
(٢) (٣٦٧٠/٧)، وينظر: (٧١٥/٢)، (١٣٧٢/٣)، (١٨٤٩/٤)

المطلب الرابع: عنايته بالجوانب البلاغية في الآيات، وإبرازه أسرار التعبير القرآني:

عني الشيخ محمد أبو زهرة في تفسيره بالجوانب البلاغية لإبراز أسرار التعبير القرآني، وهو في ذلك لا يسير على طريقة المتقدمين بل يأتي بالجوانب البلاغية بشكل واضح مفهوم وبصور متعددة منها:

١. **الكشف عن سر التعبير بالمفرد عن الجمع، أو العكس:**

يقول أبو زهرة في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾ [البقرة:٧]." الغشاوة الغطاء الذي يحول بين البصر والرؤية، وذكر الأبصار بالجمع بدل الإفراد لتعدد المبصرات الموجهة التي يتوجَّه البصر إليها، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات أوتاد، وماء ينزل من السماء، ومرسلات حاملات للرياح، وخلق مجدَّد مستمر، وحياة وموت، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠ ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠]. وهكذا تتعدَّد المبصرات، وفيها الآيات البينات الدالة على قوة القادر على كل شيء، القاهر فوق عباده. فلتعدد هذه المبصرات ذكرت الأبصار بالجمع لا بالمفرد ، والله بكل شيء محيط "[(١)].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ [البقرة:١٩٤].

يقول:" و (أل) في كلمة (والشهر) هي التي يسميها علماء اللغة : أل الجنسية ، والشهر هنا مفرد في معنى الجمع؛ لأن الشهر الحرام ليس واحدا، بل هي أربعة أشهر: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، والتعبير بالمفرد وإرادة الجمع فيه إشارة إلى المعنى المشترك في هذه الأشهر الأربعة، وهو تحريم القتال ابتداء فيها، احتراما لها، ولبثّ روح الأمن والطمأنينة بين الناس، لأن المعنى الجامع لها جعلها وحدة قائمة بذاتها، وكأنها معنى واحد تعددت صوره، فالتعبير عن

(١) (١١٩/١)

الجمع بلفظ هو في أصل ذاته للمفرد، مشيرا إلى الوحدة المشتركة الجامعة بين الأفراد، مبينا أن الحكم قد نيطَ بالمعنى الجامع بينها، ولا يتصل بالصفات الشخصية المميزة لآحادها "[١].

٢ .التنبيه على ما في صيغ الأفعال من المعاني البلاغية:

اعتنى أبو زهرة في تفسيره بصيغ الأفعال حيث يذكر ما تحويه من المعاني البلاغية، فهو كثيرا ما يذكرها وينبِّه عليها، ومن ذلك ما جاء في تفسيره قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٧٣]. حيث يقول:" وعبَّر في الآية الكريمة بـ﴿ أُحْصِرُوا ﴾ بالبناء للمجهول للإشارة إلى أن فقرهم لم يكن نتيجة امتناع عن العمل المجدي النافع، ولم يكن تخاذلا أو كسلا، أو تهاونا في طلب الرزق الحلال، إنما كان بمنع من غيرهم، أو ليس لهم فيه إرادة حرَّة قد آثروا فيها الكسل على العمل، وإنما كان المنع عجزا أو لأنهم بمقتضى التوزيع العادل والتنسيق الكامل في الأعمال تحبسهم الجماعة عن طلب الرزق انصرفوا إلى عمل آخر يجدي وينفع كالجهاد في سبيل الله، فكانوا ممنوعين عن طلب الرزق بحكم الواقع أو التكليف ولم يكونوا ممتنعين " [٢].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:٥٩]. يقول أبو زهرة :" وقال ﷻ بالنسبة لخلق آدم عليه السلام : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ ولم يقل: كن فكان، وهو المناسب للماضي، وذلك لأن التعبير بالمضارع دائما فيه تصوير وإحضار للصورة الواقعة كما وقعت، ومن جهة أخرى فصيغة المضارع في هذا المقام تنبي عما كان، وتومىء إلى ما يكون بالنسبة لخلق الله تعالى المستمر في المستقبل كما كان في الماضي "[٣].

(١) (٥٨٥/٢)، وينظر: (١٤٢/١)، (١٣٥٧/٤)، (١٩٠٣/٤)
(٢) (١٠٣٠/٢)
(٣) (١٢٥١/٣)،

وعند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ [المؤمنون:١-١١]. يقول أبو زهرة:" هذه أوصاف المؤمنين حقا وصدقا، وهم الذين يفوزون بجنة الفردوس، ويخلدون فيها، وهم الذين يفلحون أمام الله، وقد أكد فلاحهم بقد، التي لم تستعمل في القرآن الكريم إلا للتحقيق وتأكيد القول، وقد عبَّر بالماضي مع أن دخول الفردوس والفوز سيكون بعد يوم القيامة والحساب، إذ من بعد ذلك يكون الثواب بالفوز بالفردوس، وذلك لتأكد الوقوع، وأنه لا محالة سيكون كقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل:١] "(١).

٣.لفت الانتباه إلى ما في تنكير الكلمة من معان بلاغية:

يقول أبو زهرة في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٨ ﴾ [البقرة:٤٨]." أي اجعلوا لكم وقاية تقيكم عذاب يوم شديد الهول، فيه العذاب الشديد، ولا ينفع نفسا إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل، وهو يوم القيامة، وقال سبحانه: ﴿ يَوْمًا ﴾ بالتنكير لتذهب النفس مذاهب شتى في تصوير هوله، والإبهام وحده يوجد رهبة، ويشعر بالتهويل، وبأنه لا يحدّ عذابه وصف، ولا هوله ذكر، وإن

(١) (٥٠٤٤/١٠)، وينظر: (٢٣٠٠/٥)، (٢٣١٧/٥، ٢٣١٨)، (٢٨٧٦/٦)

ذلك اليوم الذي اتقاؤه بالعمل الصالح والقيام بالحقوق التي للغير، وأداء الواجبات التي عليه، يتقدم فيه الإنسان منفردا إلا من عمله، لا يجزيه إلا عمله إن خيرا فخير، ولا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا، أي لا يجزى عمل نفس عن نفس شيئا من الجزاء "(١).

وفي قول الله تعالى: ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [المائدة:٧٣]. يقول أبو زهرة:" وتنكير عذاب، ووصفه بالألم الشديد؛ لأن التنكير هنا للتعظيم والتكثير "(٢).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرعد:٢٦]. يقول أبو زهرة:" التنكير في (متاع) للتحقير لا للتكبير، أي الإمتاع نزر قليل، لا بقاء له، لأنه سرعان ما يزول إذ هو في الدنيا، والدنيا زائلة "(٣).

ويشير أبو زهرة إلى التنكير في قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٦]. فيقول:" والتنكير في قوله تعالى ﴿ وَقُرْءَانًا ﴾ للتعظيم، وليذهب العقل في عظمته كل مذهب، ولأن المقصود وصفه بأنه مقروء غير مكتوب فقط، بل هو محفوظ في الصدور قبل السطور، وكان حفظه في الصدور حماية له من التحريف "(٤).

٤.اهتمامه بحروف المعاني كحروف الجر، والنفي، وأدوات الشرط وغيرها:

لم يهمل أبو زهرة الحروف فقد بين معانيها في مواضع كثيرة من تفسيره، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسيره قول الله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء:١٧٢]. حيث يقول:" التعبير بـ(لن) فإن هذا التعبير النافي فيه تأكيد للنفي، وفيه بيان استمراره، وفي فائدة ذلك

(١) (٢٢٣/١)
(٢) (٢٣٠٩/٥)
(٣) (٣٩٤٣/٨)
(٤) (٤٤٧٤/٨)، وينظر: (٣٦٦٠/٧)، (٣٩٨١/٨)، (٤٧٩٠/٩)

إشارة إلى أن المنفي هو الأمر الذي لا يتصور العقل غيره، فلا يتصور العقل أن يترفع المسيح عن أن يكون عبدا لله، لأنه هو الذي خلقه، وهو الذي سواه، وهو الذي جعل له كل الصفات التي امتاز بها على غيره من الناس في عهده ..."[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٧]. يقول أبو زهرة:" و(السين) هنا لتأكيد الوقوع في المستقبل، وعبَّر بالسين الدالة على قرب

الوقوع المؤكد؛ للدلالة على قرب الوقوع وتأكده، وكل آت قريب ما دام مؤكد الوقوع "[٢].

وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [هود:١٢].

يقول أبو زهرة:" (الفاء) فاء الإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر، والشرط تحريض على الصبر وتقديره: إذا لم تصبر فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك. أي أنه لا مناص من الصبر على الأذى والتأني لهم حتى يكون النصر المبين، وإلا فإنك تنزل عند رغباتهم الآثمة. ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ (لعل) هنا فيها إشارة إلى ما يرجون، فلعلك أنت يا رسول الله إلى خلقه أجمعين تجاريهم في ترك بعض ما يوحى إليك من شرع مرضاة لهم، فتحرم ما يحرمون وتبيح ما يبيحون. تحرم ما يحرمون من طيبات، وتجيز طواف العرايا ثم تنزل في مرضاتهم حتى تسيغ لهم عبادة الأوثان أو يكون السكوت عنهم فيها "[٣].

(١) (١٩٨٦/٤)
(٢) (٢٧٥١/٥)
(٣) (٧:٣٦٧٦)

ومن الأمثلة أيضا ما نقله عن الزمخشري، وخالفه فيه حيث يقول:"والباء في قوله تعالى: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ [مريم:٢٥]. يقول الزمخشري: إنها صلة للتأكيد كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ﴾ [البقرة:١٩٥]. وأرى أن الباء للدلالة على تسهيل وصول الرطب إليها؛ ذلك أنها تهز في مكان هو الجذع تتساقط عليها الرطب من عل، وذلك بلا ريب تيسيرا للوصول، فلا تهز من أعلى بل تهز بمكان قريب منها، وهى النُّفَساء والتي تتعبها الحركة الكثيرة[١].

٥.يذكر مناسبة ختم الآي لها:

وهذه الصورة بارزة في تفسير أبي زهرة، ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنعام:٢١]. يقول أبو زهرة:" هذه بعض أكاذيبهم على الله تعالى التي بلغوا بها أقصى درجات الكذب، وبها استحقوا أن يكونوا هم ومن يشابهونهم أكثر الناس افتراء، وأظلم الناس في هذا الافتراء، وخلاصتها أنهم كذبوا على الله تعالى بأن ادّعوا عليه – سبحانه – ما لم يكن، وكانوا في ذلك مرتكبين لأعظم بهتان، وكذبوا بآياته، والآيات قسمان:آيات هي المعجزات، ومنها التي تحدّى بها الأنبياء، والآيات الكونية، وقد كذّبوا الاثنين، وكفروا بآيات الله تعالى في آيات الكون الدالة على إبداع خلقه، وأنه – سبحانه – هو الخالق وحده، وهناك الآيات القرآنية قد كذّبوا بها فلم يؤمنوا. ولا يمكن أن يفوزوا وهم على هذا الظلم، ولذلك ختم الله تعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾. فالظلم وخصوصا ظلم الكذب يفسد النفس، ويفسد العقل ويفسد العمل "[٢].

وفي تفسير قول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(١) (٤٦٢٩/٩)، وينظر: (١٨٨١/٤)، (١٩٧٦/٤)
(٢) (٢٤٦٧/٥،٢٤٦٨)

[النحل:٧٧]. يقول أبو زهرة في مناسبة ختمها:" وإنه يراد مع استطالة الزمن أن الساعة إذا جاءت واضطربت السموات والأرض، وكورت الشمس، وانفطرت الأرض، والكواكب اندثرت، كل ذلك يتم في لمح البصر أقرب من ذلك، فالله تعالى على كل شيء قدير ، ولذا ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾"[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحج:٦٠]. يقول أبو زهرة:" وقد قيل : لماذا ختمت الآية بالعفو الغفور، مع أن النصرة لدفع الظلم، وذلك يقتضى اسم القدرة والقهر، ومعاذ الله أن يكون المفسرون قد يتطاولون على عبارات القرآن الكريم ، ونقول: المناسب هو العفو الغفور، بالنسبة للباغي والمعاقب، ذلك أن الحرب في عصر النبي ﷺ وما قام به الصحابة والتابعون من بعده ما كانت حرب دماء وغلب، بل كانت حرب هداية وإرشاد، وتعليم ورفع للظلم، ورحمة للعالمين، ولذلك دعا الله تعالى إلى العفو فيها فقال تعالى: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل/١٢٦]. وقال تعالى في هذا المقام أيضا. ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى:٤٣]. وقال: ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى:٤٠]...ولذا كان ختم الآية بالعفو والغفران له موقعه، وهو من الأسلوب الحكيم الذي لا يعلو إليه متكلم في الأرض، فهو يحث على العفو كما حثَّت الآيات الأُخر، وهو يبين أن حرب الإسلام العادلة يؤثر الله فيها الصفح من أهل الإيمان ما كان سبيل إليه، إذ إنها ليست للانتقام، وإلا تكررت الحروب، فهذا

(١) (٤٢٢٩/٨)

الفريق يقتص، ثم الفريق الآخر يبغي، ويتوالى القصاص والبغي، وفتح باب العفو يغلق باب الحرب، ما دام الحق يمكن إقامته بغير توالي القتال، القتال عادلا أو باغيا "[١].

وهناك صور أخرى من عنايته بالجوانب البلاغية كذكره لفوائد الاستفهام[٢]، والالتفات[٣]، وقد استفاد كثيرا من الزمخشري، وله تعقبات عليه كما مر.

المطلب الخامس: بيانه الحكَم التشريعية:

أبو زهرة من المفسرين المعاصرين الذين عنوا بإبراز الحكم التشريعية وخصائص التشريع القرآني، لبيان سماحة الإسلام وعظمته، ويسره وإنصافه وصلاحه لكل العصور[٤].

ففي تفسير قول الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥]. يقول أبو زهرة:" وإن شرعية صيام رمضان مع الرخص التي تسوغ الإفطار هو من تيسير أداء الفريضة؛ ذلك أن من شأن هذه الشريعة أنها إذا كلّفت تكليفا فيه مشقة فتحت باب الترخيص ليسهل الأداء وليداوم عليه ويستمر من غير تململ، ولا تحمل المكلفين على أقصى المشقات ولذا قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾. وهذا النص الكريم فيه إشارة إلى تعليل هذه الرخص، وفيه إشارة إلى الوصف العام لشرع الله تعالى، الذي دعا إليه النبي ﷺ فقال: (يسروا ولا تعسروا)[٥]. وما خير النبي بين أمرين إلا اختار

(١) (٥٠١٤/٩،٥٠١٥)، وينظر: (١٩١/١)، (٥٠٢٩/٩)، (٥١٦٧/١٠)
(٢) ١٢٧٠/٣، ١٤٣٢)، (٣٨٣٩/٧)، (٥٢٠٠٤/١٠)
(٣) (٨٧٢/٢، ٨٨٤)، (١٧٤٣/٤)، (٤٧٣٧/٩)
(٤) ينظر: التجديد في التفسير لأحمد الشرقاوي (٤٠١)
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا ح (٦٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ح (١٧٣٤) عن أنس بن مالك ﷺ.

أيسرهما ما لم يكن معصية، وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨]. ولمقام التعليل في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ . عطف عليه تعليل آخر، وهو قوله: ﴿ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ . أي لتتموا عدة الشهر في يسر من غير إعنات، وهنا فعل محذوف تقديره شرع لكم ذاك التيسير لكيلا يكون حرج وضيق في صومكم، ولتكملوا العدة أي لتستطيعوا أداء العدد كاملا غير منقوص بالأداء لمن لا عذر له، وبالأداء مع القضاء من أيام أُخر لمن كان ذا رخصة تجيز الفطر وتوجب القضاء، فتكون عدة الشهر قد كملت، أداء وقضاء أو أداء فقط لمن له عذر "[1].

وفي تحريم الصيد على المحرم يقول أبو زهرة مبينا بعض حكمه:" ذكر ﷻ المحرمات لمكانها وحال التناول لها، فقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [المائدة:٩٤]. البيت الحرام في واد غير ذي زرع كما قال إبراهيم عليه السلام فيما حكاه الله تعالى عنه إذ قال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٧]. وكان على المسلمين أن يعملوا على توفير الطعام لهم ، حتى تتحقق إجابة

ذلك الدعاء، إذ فرض الله ﷻ الحج إلى ذلك البيت المطهر، ففرض الحج إليه كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧]. فكان الناس يذهبون إليه من كل فج عميق، وإذا كان من مقاصد الحج التوسعة على المقيمين في هذا البيت، لا يصح أن يكون وجودهم سببا للتضييق

(١) (٥٦٠/١)

عليهم ولو كان الصيد مباحا، وهم يسكنون البادية، ومن موردهم الصيد، ولو فتح باب الإباحة للمحرمين لكان من المتصور أن يستنفذوا كل عام أكثر الصيد حول مكة، فيجيئوا بالحرمان بدل التوسعة، وبالضيق عليهم بدل الترفيه، فكان لا بد من منع المحرمين من قتل الصيد، حتى لا يكون أهل مكة في ضيق فوق ضيق المكان، وبعده عن الزرع والثمار.

النداء في النص القرآني الكريم للذين آمنوا؛ لأنه من مقتضيات الإيمان ذلك الخطاب، ولم يكن تحريم الصيد للمحرمين لهذا فقط، بل لاختبار النفس المؤمنة، ولتعويدها الصبر، ولتربية العزيمة، إن العزيمة تتربى في صغار الأمور، كما تتربى في كبارها، وإن كبارها تحتاج إلى قوة جسمية، وإرادة نفسية، أما الأمور الهينة اللينة، فإنها تحتاج إلى عزيمة روحية "[1].

ومن الأمثلة على بيان أبي زهرة للحكَم التشريعية ما ختم به تفسير آيات الأحكام في سورة النور إذ يقول:" هذه الأحكام كلها أحكام لصيانة المجتمع الإسلامي وليكون طاهرا لا دنس فيه، ولصيانة الأسرة، ولصيانة المرأة المسلمة حرة أو أَمة، والرجل المسلم حرا أو عبدا، وهي آيات بيِّنات، ولذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤ ﴾ [النور: ٣٤]. يذكر الله تعالى في هذه الآية أنه أنزل في القرآن الكريم ثلاثة أمور.

أولها: ﴿ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ ﴾، أي آيات مبيِّنة للأحكام الشرعية في الأسرة والمجتمع الإسلامي والعلاقات الإنسانية بين المسلمين وغيرهم، ففيها الآيات المكونة للأسرة من زواج وأحكام أولاد، وحقوق للزوجين في أثناء قيام الحياة الزوجية وانتهائها، وحقوق المرأة وحقوق الرجل ثم فيها ما شرع حماية للأسرة..."[2].

(١) (٢٣٥٣/٥، ٢٣٥٤)
(٢) (٥١٩١/١٠)، وينظر: (٤٦٣/١-٤٦٥)، (٣٠٥١/٦، ٣٠٥٠)، (٤٢٦٤/٨-٤٢٦٦)

المطلب السادس: عنايته بالتفسير الموضوعي:

ظهر في العصر الحديث التفسير الموضوعي الذي يعالج موضوعاً معيناً من خلال القرآن كله، أو من خلال سورة منه، أو بتتبع لفظة من كتاب الله[١]. وعناية المفسرين المعاصرين بالتفسير الموضوعي جاءت لملاءمته حاجة العصر ودراسة القضايا الحديثة[٢]. ومن هؤلاء المفسرين أبو زهرة فقد عنى بالتفسير الموضوعي وأبرزه في تفسيره. بخلاف ما كان عليه المتقدمون من ا لمفسرين حيث إن كتبهم تُفَسِّر القرآن تفسيرا تحليليا[٣]، وإن وُجد ميهم من ضيَّق دائرة البحث في التفسير، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعَبة المتعددة، كمن أفرد كتاباً عن أقسام القرآن، أو مفرداته، أو الناسخ والمنسوخ من القرآن، أو أسباب النزول، أو أحكام القرآن، أو غير ذلك، فقصدوا إلى موضوع خاص في القرآن يجمعون ما تفرَّق منه، ويفردونه بالدرس والبحث[٤].

وفي تفسير أبي زهرة نجد أنه يذكر الموضوعات القرآنية في مقدمات السور، مُبتدأ بفاتحة السورة ثم يسير في عرض موضوعاتها بإجمال بحسب ترتيب ذكرها في آياتَ السورة، ويذكر أحيانا الآيات الدالة على بعضها وخاصة إذا كثرت موضوعات السورة.

فعلى سبيل المثال لما ذكر موضوعات سورة النحل بيَّن أنها " كالسور المكية تتجه إلى إثبات التوحيد مما خلق من أرض وسماء وأحياء، وتأكيد للبعث والنشور، وإبطال عبادة الأوثان، وما اقترن بعبادة الأوثان من وأد البنات. وابتدئت بتأكيد عذاب الله لمن يشرك وأنه نازل به لَا محالة، وأنه – سبحانه – ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده، وإن في ذلك إثبات الرسالة الإلهية تجيء على لسان البشر. وقد أثبت من بعد ذلك قدرته – سبحانه – في خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان

(١) ينظر: العناية بالقرآن الكريم وعلومه من بداية القرن الرابع الهجري إلى عصرنا الحاضر لنبيل آل إسماعيل (٩١)، التجديد في تفسير القرآن لأحمد الشرقاوي (٣٩٦)
(٢) ينظر: علوم القرآن الكريم لنور الدين عتر (١١٥)
(٣) ينظر: التجديد في التفسير مادة ومنهاجا لجمال أبو حسَّان (١٥)
(٤) ينظر: التفسير والمفسرون للذهبي (١٣٥/١)

من نطفة، فإذا هو خصيم مبين مشيرا إلى مدرجه في التكوين، حتى يصير ذا لسان يجادل به، وعقل يفكر به "[١].

ثم ذكر أبو زهرة بقية موضوعات السورة على ما سبق بيانه وهكذا يفعل في مقدمة كل سورة[٢].

ومن عناية أبي زهرة بالتفسير الموضوعي أنه حين يشرع في تفسير السورة يجعل للآيات التي يتناولها بالتفسير موضوعا خاصا بها، كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧ ﴾ [البقرة:٢٦،٢٧]. حيث جعل موضوعها: (الأمثال في القرآن وموقعها في النفوس). ثم شرع في الكلام عن الآيتين فقال:" بين الله تعالى حال المنافقين، وضرب ﷻ مثلين يبينان حالهم التي يبدو فيها النور لهم ولا ينتفعون منه، فشبَّههم – سبحانه – بحال الذي يستوقد ناراً، وما أن يتم له أن ينتفع حتى تنطفئ، ويذهب الله تعالى بنورهم فلا يبصرون[٣]، وشبههم ثانياً بحال قوم أصابهم صيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، من حيث إن ماء الحياة يجئ إليهم، ولكن لسوء حالهم وفساد قلوبهم تنعكس بين أيديهم الأمور، فلا يدركون... إلى آخر ما بين ﷻ "[٤].

(١) (٤١٢٠/٨)
(٢) ينظر: (٢٠٠٣/٤-٢٠٠٧)، (٣٦٤٩/٧-٣٦٥٩)، (٤٦٩٧/٩-٤٧٠٢)
(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴾ [البقرة:١٧].
(٤) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ ﴾ [البقرة:١٩].

وإنه من منهاج الذكر الحكيم ضرب الأمثال تقريباً للأفهام، وتصويراً للمعاني التي تسمو بها المدارك بالأمور المحسوسة القريبة لكل من عنده لُب، والأمثال تُضرب لذي اللّب الحكيم فيعتبر بها، ويكون المغيب غير المحسوس كأنه المحسوس الذي يرى ويشاهد، ولقد ضرب الله الأمثال بالذباب في بديع تكوينه وسر خلقه الذي تعجز العقول عن أن يخلقوا مثله، وشبه الأوثان التي يعبدونها وهي لا تضر ولا تنفع، ولا تملك من أمرها شيئاً بأنها أوهام توهموها، وأخيلة من القدرة تخيلوها، ولقد قال تعالى في الذباب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج:٧٣، ٧٤]. فهو في هذا المثل بين أنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً، ولو اجتمعوا له هم وآلهتهم، وأنهم لا يستطيعون أن يتغلبوا عليه إن سلبهم شيئاً.

وفي سورة العنكبوت شبه آلهتهم التي يتوهمون فيها سلطاناً، كمثل بيت العنكبوت أي الخيوط التي ينسجها، فقال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت:٤١].

أكثر الله تعالى من ضرب الأمثال لتقريب المعاني السامية للعقول التي لا تدرك إلا المحسوسات الدانية، ولكن المعاند الجاحد، والعاجز الحسود يقلب الحسنات، ويتهكم على الحقائق الرائعة، فتكلموا متعجبين مستغربين من ضرب الأمثال بالبعوض والذباب، وكأنهم إذ لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله وعجزوا عجزاً صارخا أخذوا يثيرون الشك حول بعض أجزائه وما اشتمل عليه، فاختاروا الأمثال موضعاً لإثارة الاستغراب والعجب يتوهمون أن ذلك يضعف من تأثيره. لذا ردّ الله تعالى أمرهم وإثارة العجب بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ ﴾. ضرب – معناها ذكر، والمثل هو الحال التي تشبه حالاً قائمة قدرت أو وقعت، فمعنى ضرب

المثل بيان الحال التي تشبه وتمثل بحال واقعة ثابتة، ويقول علماء البلاغة، إن للمثل مضرباً ومورداً، فالمورد هو الحال التي تشبه بها القول، والتي صدر فيها، والمضرب هو الحال التي يشبه الحال التي وقعت أو هي ثابتة، ومهما يكن فالمثل تشبيه حال غير منظورة ولكن تدركها العقول بحال أمر واقع ثابت...وإن هذا النص الكريم يدل على أن ضرب الأمثال بصغير الأشياء وكبيرها يليق بالبيان الحكيم، وذكر الله تعالى في كتابه الحميد المجيد. وإن الأمر الجدير بالاعتبار والتقدير يختلف تلقى الناس له، فالقلب الذاكر الطاهر الذي يطلب الحقائق ويتقبلها ويدركها معتبرا متعظا مؤمنا يزداد إيمانا، والقلب المضطرب الذي يعاند، ويكابر ويثير الاستغراب والعجب، وكأنه يحاول بذلك أن يثير غبارا حول الحقائق الثابتة "[١].

ومن عناية أبي زهرة بالتفسير الموضوعي أيضا أنه يذكر معاني الكلمة وإطلاقاتها في القرآن الكريم. ومن أمثلة ذلك ما ذكره في معاني الفضل[٢]. وإطلاق الطاغوت في القرآن[٣]، وتعبيرات القرآن عن الكسب[٤].

(١) (١/١٧٣-١٧٦)، محمد أبو زهرة ومنهجه في تفسيره زهرة التفاسير (١٦١-١٦٣)، وينظر: أمثلة أخرى: (٢/٧٥٤-٧٥٩)، (٦/٢٩٨٠)، (٨/٤٣٢٠-٤٣٢٢)
(٢) ينظر: (٢/٦٢٠)
(٣) ينظر: (٢/٩٤٥،٩٤٦)
(٤) ينظر: (٤/١٨٤٩،١٨٥٠)، وينظر: أمثلة أخرى (٢/١٠١١)، (٤/١٨٥١،١٨٦٣)

المطلب السابع: إشاراته إلى بعض التفسير العلمي بإيجاز:

التفسير العلمي هو " تفسير الآيات الّتي تتحدّث عن الكون وخلق الإنسان ونحو ذلك، بما توصل إليه العلم الحديث من اكتشاف واطّلاع على حقائق لم يهتد إليها عموم النّاس من قبل.

وهذا فن من التّفسير لا يغفل أثره في إعجاز القرآن، وزيادة الإيمان، لكنّي أراه لا يقبل إلّا بشروط ثلاثة:

١ – أن لا يصادم أصلا معلوما بنفس دلالة القرآن أو صحيح السنّة.

٢ – أن يحتمله اللّفظ من جهة اللّغة.

٣ – أن يكون حقيقة علمية ثبتت بالبراهين، لا مجرد نظرية محتملة، خشية أن تجعل نصوص القرآن غرضا لتجارب النّاس.

فإذا اجتمعت هذه الشّروط فلا مانع من قبول هذا النّوع من التّفسير، فإنّ الله تعالى قال: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [فصلت:٥٣]."[(١)].

وللتفسير العلمي جذور فيما وصل إلينا من تفاسير المتقدمين، ويمكن أن يعد الغزالي[ت:٥٠٥هـ][(٢)]. والرازي[ت:٦٠٦][(٣)] من أوائل الباحثين فيه، وتبعهم السيوطي فعقد بابا في كتابه الإتقان تكلم فيه عن العلوم المستنبطة من القرآن[(٤)].

ولقد عني بعض المشتغلين بالتفسير، وبعض الباحثين والكتّاب المسلمين المعاصرين بهذا الضرب من ضروب التفسير، أو بهذا النوع من آيات الكتاب العزيز، والأسباب الداعية لذلك الكشوف العلمية التي امتاز بها العصر الحديث، والتي تناولت الظواهر الكونية وكذلك الإنسان، ومحاولة بعض المسلمين اللحاق بركب التقدم العلمي، والتأكيد على عدم معارضة القرآن والإسلام للعلم ويقرب من هذا السبب،

(١) المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله الجديع (٣٩٠)
(٢) ينظر: الباب الرابع من كتابه (إحياء علوم الدين) وعنوانه: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل، وأيضا ما كتبه في كل من كتبه (جواهر القرآن) و (القسطاس المستقيم) و (الحكمة في مخلوقات الله).
(٣) ينظر: تفسيره المسمى (مفاتيح الغيب) الشهير بـــ(التفسير الكبير).
(٤) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٤/٢٨-٤٠)

أو يكمله ويتممه أن المسلمين وجدوا في هذا اللون المعاصر من ألوان التفسير تأكيدا لإعجاز القرآن، أو بابا جديدا من أبوابه، حتى دعوه بالإعجاز العلمي، بل يمكن القول: إن التفسير العلمي والإعجاز العلمي، صارا قرينين أو شيئا واحدا في عرف كثير من الدارسين والباحثين(١).

وأما أبو زهرة فقد بيَّن موقفه من التفسير العلمي في التمهيد الذي كتبه قبل أن يبدأ في التفسير فقرر أمرين يجب أخذهما بنظر الاعتبار لبيان الحقائق العلمية وهما:

" أولاً: ألا تفسر الآيات الكريمات بنظريات وفروض لم يقيم الدليل القاطع عليها، لأنه قد تتغير العلوم الكونية بتغير النظريات حولها وقتاً بعد آخر، ولا يصح أن يفسر القرآن بنظريات قابلة للنقض والتغير، لأنه كتاب الله تعالى لا تبديل لكلماته وهو العزيز الحكيم، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثانيهما: ألا يكون الاتجاه إلى تحميل الألفاظ فوق ما تحتمل، فلا تجهد الآيات إجهاداً ليطبقوها على الحقائق أو ليطبقوا الحقائق عليها. بل لا يفكر أهل الخبرة في أسرار الآيات إلا ما يكون ظاهراً واضحاً... ويكون عمل الخبير العلمي تصويرها من غير إجهاد لألفاظها أو تحميلها ما لا تحتمل، وإن الأخذ بهذا المنهاج السليم فيه بيان للقرآن الكريم وصيانة له، وبعد به عن مواطن الشبهات "(٢). وهذا تأكيد منه لما نبه إليه في افتتاحية تفسيره حيث قال:" وإنا لا نحاول فيما يتعلق بالكون أن نحمل الألفاظ السامية فوق ما تحتمل أو غير ما تحتمل "(٣).

وقد أخذ أبو زهرة برأي الإمام الغزالي الذي يقرر أن المعاني اللغوية، وما يشير إليه النقل والسماع هو المفتاح والطريق للمعنى العميق الذي يدركه الناس كلما تفتقت العقول واتسعت المدارك وأطلعت على حقائق الكون، وأدركت معاني الآيات الطالبة للنظر في الكون، فهو اللوح الذي كتبت فيه حقائق هذا الوجود، وفيه الدلالة على وجود الله تعالى، وإبداعه(٤).

(١) ينظر: مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه لعدنان زرزور (٢٣١-٢٣٥)
(٢) زهرة التفاسير (٣٨/١)، وينظر: المعجزة الكبرى (٣٩٦-٣٧٣)
(٣) (١٩/١)، وينظر: الإعجاز القرآني في دراسات أبي زهرة لمحمد الحضيري (٣٣٩،٣٤٤)
(٤) ينظر: إحياء علوم الدين (٢٩١/١-٢٩٣)، زهرة التفاسير (٣٦/١، ٣٨)، لمحات في علوم القرآن لمحمد الصباغ (٢٩٢-٣٠٢)

ومن الشواهد على إشارات أبي زهرة إلى التفسير العلمي قوله في الآية الكريمة:

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ **[المائدة:٩٧]. "إن ما شرعه الله تعالى لمكة وما حولها وما فيها دليل على أن الله تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض؛ لأن مكة في أرض جدبة لا ماء فيها**

ولا شجر، وأنها جبال لا ثمرة فيها، وأنه لا خير يرجى من طبعها، كما قال إبراهيم عليه السلام:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ **[إبراهيم:٣٧]. فالسماء لا تجود عليها بغيثها منتظماً، والأرض لا تجود عليها بإخراج إنزالها من معادن وفلزات سائلة وغير سائلة، فجعل الله تعالى الحج إليها، وحرم على المحرمين ما حرم من صيد ليبقى لهم ما عندهم من وفر في الحيوان المتأبد، ولتحمل من الأراضي الخصبة والغنية والتي فيها الثروات إلى تلك الأرض الجدبة، فينقل الله سبحانه من الفيض إلى الغيض ليعم الخير، وكانت بمكة كعبة للمسلمين، لأنها أرض لا ترام من غاصب، ولا تراد من ظالم، ثم هي في وسط الأرض حتى قال علماء الأرضيين : إن بيت الله تعالى في وسط أرض الله الواسعة، فهي نقطة ارتكاز في قطرها "**(١).

ويقول أبو زهرة في تفسير قوله تعالى: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾**[النحل/٦٦]:"من" للابتداء، أي تكوَّن بين فرث ودم، والفرث فضلات الطعام، وقد قال ابن عباس: إن الدابة تأكل العلف فإذا استقر في كرشها طبخته، فكان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً، وهذا معناه أنه في الوسط بينهما اللبن، وقد يكون ذلك التفسير من الناحية العلمية مقرباً، ذلك أن أكل البهائم يهضم، ثم يتمثل جزء منه في الدم، وجزء ينزل لبناً درا "**(٢).

(١) (٢٣٦٦/٥)
(٢) (٤٢١١/٨)

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس:٥].:" خلق الله الشمس نيِّرة في ذاتها والقمر نيِّراً بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها، وهذا ما يقرره علماء الكون، وفي الواقع أن ضياء الشمس حقيقي، فهي كالمصباح والنور ينبثق منه، والقمر لا ضياء فيه وإنما نوره نسبي في انعكاس ضوء الشمس عليه، ولذا كان له منازل، وقد ينطمس على الأرض، قال تعالى: ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ فهو يبتدئ هلالاً يكبر شيئاً فشيئاً حتى يصير بدراً ثم يعود يصغر شيئاً فشيئاً حتى يكون المحاق "[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [المؤمنون:١٧]. يقول أبو زهرة:" الطرائق جمع طريقة، وهي هنا بمعنى مطروقة من طرق النقل من حيث إنها مسالك، ومن طرق الخوافي في الطير، بمعنى أن كل طبقة منها فوق الطبقة الأخرى، وطرائق السماء أفلاكها، إذ كل فلك فوق الفلك الآخر وكل مربوطة بأرسان من الجاذبية والنواميس الكونية، بحيث تكون متماسكة، كل نجم وكوكب فيها مشدود بالآخر، كأن حبلا أو سلكا يمسكه، وفسَّر بعض علماء الفلك هذا النص السامي بأن سبع طرائق سبعة أفلاك لكل سماء طريق يجرى بما فيها من الأقمار والنجوم "[٢].

(١) (٣٥١٦/٧)
(٢) (٥٠٥٧/١٠)، وينظر: (٥٠٩/١)، (٢٠٢٩/٤)، (٤١٤١/٨)، (٤٨٥٥/٩)

المطلب الثامن: كتابته مقدمات لكل سورة:

كتب أبو زهرة سبعا وعشرين مقدمة بعدد السور التي فسَّرها، وهذه المقدمات متفاوتة منها الطويل كما في مقدمة سورة النساء[١]، فقد جاءت في إحدى عشرة صفحة، ومنها المتوسط كما في مقدمة سورة المائدة فقد جاءت أقل من ست صفحات[٢]، ومنها القصير كما في مقدمة سورة آل عمران التي جاءت أقل من ثلاث صفحات[٣]، وهي مقدمات غلب فيها الكلام عن موضوعات السور واستعراضها بإجمال–كما مرّ – إلا أنه قبل ذكر الموضوعات يذكر اسم السورة وسبب التسمية، ونزولها، وعدد الآيات وهذا في أكثر السور. ونادرا ما يزيد على ذلك، كبيانه لرأيه في المكي والمدني في مقدمة سورة البقرة إذ يقول: " وقد ادعى بعض العلماء أن بعض هذه السورة كان آخر آية نزلت من القرآن الكريم، وهى قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [الآية:٢٨١]. نزلت في حجة الوداع بمنى، وهي على هذا باعتبار نزولها في مكة تكون مكية.

وإن الذي نراه أن فيصل التفرقة بين المكي والمدني، ليس هو مكان النزول، إنما هو كونه بعد الهجرة أو قبلها، فإن كان قبلها فهو مكي، وإن كان بعدها فهو مدني ولو نزل بمكة، إذ إن الفارق بين المكي والمدني موضوعي، لا مكاني إذ إن أكثر الموضوعات التي تتصدى لها السور والآيات المكية: بيان أصل العقيدة الإسلامية، ومجادلة المشركين حولها، وسوق الأدلة لبطلان الوثنية، وتأكيد الوحدانية، والتعرض لأحوال المشركين ، ومعاداتهم للنبي ﷺ ومن امن معه، وأخبار المبادرة بالدعوة وإنذار العشيرة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ ﴾ [الشعراء:٢١٤،٢١٥]. وهكذا أكثر القرآن المكي يتعرض لإثبات العقيدة، ومجادلة من ينكرونها من عبدة الأوثان.

(١) ينظر: (٣/١٥٦٢-١٥٧٢)
(٢) ينظر: (٤/٢٠٠٣-٢٠٠٨)
(٣) ينظر: (٢/١٠٩٦-١٠٩٨)

أما السور المدنية وآياتها، فإنها تبين الأحكام الفرعية، وأحوال أهل الكتاب مع أهل الإيمان، وتنظيم الدولة الإسلامية، وسن النظم لتكوينها، وتكوين المجتمع الفاضل الذي تقوم عليه، وما يحل وما يحرم في هذا المجتمع، وفيها قيام الأسرة الإسلامية التي تقوم على تقوى من الله تعالى، ورضوان من الله ورحمة.

وإذا كانت السور المكية فيها الإشارات لإيذاء المؤمنين، واستضعافهم مع رجاء القوة كقوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ ﴾ [القصص:٥]. إذا كانت السور المكية فيها إشارة إلى الاستضعاف فالسور المدنية فيها الإذن بالقتال، وتنظيمه، والسير به في طريق الحق والعدل، وبيان الغاية من القتال ونهايته، وهى منع الفتنة في الدين "[١].

وفي مقدمة سورة التوبة تكلم أبو زهرة عن سبب ترك كتابة البسملة وعلاقته بكتابة المصحف[٢].

وفي مقدمة سورة يوسف ناقش أبو زهرة رأيا شاذا يدعي أنها ليست من القرآن فقال:" ولقد كفرت طائفة من الطوائف الخارجة عن الإسلام بإنكارها سورة يوسف، وادعاء أنها ليست من القرآن، وكأن القرآن يخضع بالزيادة والنقصان للأهواء المنحرفة، وإن ادعت التمسك بالدين ، فهي تمرق منه مروق السهم من الرَّميَّة ، وأولئك هم أتباع عبد الكريم عجرد[٣]، وإن القرآن كله غير منقوص ثبت بالتواتر عن النبي ﷺ، وأنه تلقاه عن جبريل الرسول الأمين عن رب العالمين مرتلا متلوًّا، كما قال تعالى: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢ ﴾ [الفرقان:٣٢]. وما كان لنا أن نعرف ما دفعهم إلى هذا الإنكار الذي كفروا بسببه، ولكن نذكره لبيان أنه وهم كافرين لم يذوقوا القرآن ولم يعلموه، قالوا إنها

(١) (٧٥-٧٦/١)
(٢) (٣٢١١/٦)
(٣) هذا هو الصواب في اسمه وقد كُتب في زهرة التفاسير (٣٧٨١/٧) (عجرو) بالواو. وهو: عبد الكريم بن عجرد أحد رؤوس الخوارج، وهو كبير الطائفة المعروفة بالعجاردة، ذهبوا إلى أن سورة يوسف ليست من القرآن، قالوا لأنها قصة محبة، وكفَّروا أصحاب الكبائر، وتفرد عبد الكريم بقوله تجب البراءة من الأطفال إلى أن يبلغوا ويدعوا إلى الإسلام. ينظر: الملل والنحل (١٢٨/١)، الوافي بالوفيات (٥٨،٥٧/١٩)، لسان الميزان (٢٤٠/٥)

قصة غرام، ونزلت دفعة واحدة، والقرآن منزَّه عن ذكر الغرام والحب، والقرآن نزل منجما، ونقول في الإجابة عن ذلك، إنها قصة المجتمع المصري، والأسرة الفرعونية التي طغت في البلاد وأكثرت فيها الفساد، وقال قائلهم: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات:٢٤]. وبيته على هذا النحو من الانحلال، وهي بينت مغبة الغرام، وكيف يوجد الانحلال، والاستعصام بالفضيلة حيث تفور فورة الرذيلة، ودعوة الوحدانية في وسط الوثنية، وتدبير الاقتصاد، واستعانة الفراعنة بخبراء الاقتصاد حيثما كانوا، وخضوعهم لآرائهم، وتوسيد الأمر لهم، ثم هي تبين مركز مصر الاقتصادي، واستعانة من حولها بها، ثم تثبت نفسية الآباء مع الأبناء، والحسد بين الإخوة، وما ينبغي عند تربية الأولاد. وإن ما سمَّوه الغرام المنحرف لم يكن إلا في جزء صغير منها ولم يستغرقه، بل ترددت عباراته، وقد ابتدأته بـ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [يوسف:٢٣]. وانتهت بدخوله السجن، وهى ثماني آيات، فيها الغرام من جانبها والاستعصام من جانبه، وباقي السورة حكمة واقتصاد وتدبير، وتعاون، ومشقة وصبر، ثم لقاء الأحباب على مائدة المودَّة والأخوَّة الودود. فكيف تسمى سورة غرام إلا ممن انحرف عقله انحرافا منعه من استيعاب السورة.

وإن القرآن لم ينزل كله منجما، فأول سورة التوبة نزل دفعة واحدة، وأكثر سورة الأنعام نزل دفعة واحدة، وسورة إبراهيم أكثرها نزل دفعة واحدة. وإذا كان ممن تسموا باسم من الخوارج من قال هذا القول، فقد كان منهم أيضا من أجاز نكاح البنات والأمهات والمجوس، وهم – بلا شك – كافرون كإخوانهم. ونقول: إن أكثرهم كان مؤمنا منحرف العقل..."[(١)].

ومن عناية أبي زهرة بأسماء السورة في المقدمات أنه أحيانا يطلق أسماء على بعض السور حيث قال عن سورة النساء:" هي سورة الإنسانية، ففيها عيَّن القرآن الكريم العلاقات الإنسانية التي تربط الناس بعضهم ببعض، وما ينبغي أن تنهجه المجتمعات الفاضلة في جعل العلاقة الإنسانية الأصيلة تسير في مجراها الطبيعي الذي رسمه رب

(١) (٣٧٨٢،٣٧٨١/٧)

العالمين بمقتضى الفطرة، وفيها ما حدَّه الله تعالى – لعلاج الانحراف الذي ينحرف به ذوو الأهواء من الآحاد والجماعات "[١].

وبعد أن استعرض موضوعات سورة الأنفال قال:" هذه إشارات إلى ما اشتملت عليها سورة الأنفال، ولولا أنها سمِّيت بذلك لقلنا إنها سورة من سور الجهاد، والله سبحانه وتعالى أعلم "[٢].

ومما يؤخذ عليه – رحمه الله – عدم عنايته بما استثني من المكي والمدني فهو في الغالب ناقل يذكر أن السورة مكية أو مدنية ثم يقول قالوا أو يقولون أو قيل إلا آية كذا وكذا[٣].

وفي الجملة تعد مقدمات السور إضافة تجديدية علمية مهمة في تفسيره.

(١) (١٥٦٣/٣)
(٢) (٣٠٥٩/٦)، وينظر: (٣٨٨٣/٧)، (٥١٣٠/١٠)
(٣) ينظر: (٣٤٩٨/٧)، (٤٠٦٠/٨، ٤٣١٠)، (٤٦٠٢/٩، ٤٦٩٧)

المطلب التاسع: تنزيله الآيات على واقع الناس، وعنايته ببيان المنهج الإلهي لإصلاح المجتمعات المسلمة:

تفسير أبي زهرة – كما سبق – من التفاسير ذات الاتجاه الاجتماعي، ومما امتاز به هذا الاتجاه تركيزه

على إصلاح المجتمعات على أساس القرآن، ومعالجته قضايا المجتمع ومشكلاته المختلفة، من خلال تطبيق وتنزيل الآيات مباشرة على تلك القضايا، ويقدم السنن الاجتماعية الكفيلة برقي المجتمعات وتقدمها(١).

ولا شك أن القرآن الكريم فيه العلاج الشافي لواقع الناس، يقول ابن القيم – رحمه الله – في شأن القرآن:" ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك "(٢).

وقد عَرَّف تنزيل الآيات على الواقع بأنه مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما يشابهها في كتاب الله تعالى سواء كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية(٣).

والمفسرون المعتنون بتنزيل الآيات على الواقع متفاوتون قلة وكثرة، تصريحا وتلميحا، لكنهم متفقون على أن نصوص القرآن العظيم صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، وأن العبرة بعموم ألفاظه(٤).

وأبو زهرة من المفسرين الذين ظهر اهتمامهم بمعالجة المسائل التربوية والاجتماعية والنفسية(٥)؛ وكثر تناوله لها في تفسره، مع ربطها بواقع الناس. فعند النظر في تفسيره تظهر عنايته بتنزيل الآيات على الواقع، وبيان المنهج الإلهي لإصلاح المجتمعات المسلمة، ومن القضايا التي تناولها أبو زهرة تسلط الكفار على المسلمين،

(١) ينظر:اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (٤٧/١)، (٧٧٥/٢-٧٩٨)، تعريف الدارسين مناهج المفسرين (٥٦٨)
(٢) مدارج السالكين (٣٤٣/١)
(٣) تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين لعبد العزيز الضامر (٣٣)
(٤) ينظر: تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم ليحيى زمزمي، بحث منشور في مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد الرابع، السنة الثانية (٢٩،٣٠)
(٥) ينظر: محمد أبو زهرة ومنهجه في تفسيره زهرة التفاسير (٣١٣)

واقتتال المسلمين وحرب بعضهم بعضا، والفوضى الخلُقية، والتقليد المذموم، وعدم عناية المسلمين بالقرآن، وهجر الشريعة، مع بيانه أسس البناء الاجتماعي، ودعائم حماية الأمة، وتقوية بنيانها، وفي قضايا إصلاح المجتمع يثير المؤلف كثيرا منها ومن ذلك ما يتصل بخطر النفاق والمنافقين على المجتمعات الإسلامية، وأهمية إصلاح الأسرة المسلمة، ومسائل تعدد الزوجات، والطلاق، والحديث عن الربا، والعلاقات الاجتماعية، وهو كثير جدا في تفسيره. إلى غير ذلك من القضايا والموضوعات التي تجلي اهتمام أبي زهرة بواقعة واجتهاده في سبيل قيام مجتمع إسلامي على دعائم من الفضيلة والخلق الكريم(١).

ومن شواهد ذلك أنه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ [البقرة: الآيات ٨٤-٨٦].

كتب تنبيها قال فيه:" هذه الآيات نزلت في بني إسرائيل، والخطاب لهم ابتداء، ولكنه شامل عام في عبرته بالنسبة للأمم جميعها، وخصوصا الأمم التي تقوم على مبادئ رسالة إلهية من السماء، فإنها يجب أن تكون بناء واحدا قائما لا تتداعى لبناته فيهوى...ومع ذلك فعلنا الكثير نحن المسلمين في عصرنا، وهو امتداد لعصور قبلنا من العصر العباسي الثاني إلى اليوم، سفكنا دماءنا بأيدينا لهوى الملوك، وفساد الحكام، فكانت الحرب بين المسلمين شديدة لُحيَّة، وصار كل فريق يرى في الآخر عدوه الذي ينتهز الفرص للقضاء عليه، وصار بعضهم يغرى أعداء الإسلام من الوثنيين وغيرهم بالمسلمين، حتى وقعوا بالمسلمين وحاربوهم حرب إفناء.

ولقد كانت الأرض الإسلامية تلتهم قطعةً قطعة، وفى المسلمين أقوياء لا يرون للدين حقا عليهم يوجب أن ينقذوا إخوانهم من المؤمنين، فقد كان النصارى يعذبون المسلمين حتى أفنوهم فيها، والأتراك من النظارة الذين ينظرون ولا يتحركون. وجاء العصر الأخير، فرأينا أعداء الله وأعداء الإسلام يجندون من المسلمين من يحاربون المسلمين، ووجدنا من الذين يتمسحون باسم علماء الدين من يؤيدون محاربة المسلم للمسلم، ووجدنا في السنين الأخيرة من الحكام من يقتل المقاتل العظيمة في المسلمين من رعيته، حتى يلجئهم إلى الوثنيين لينقذوهم، وتذهب جماعات إسلامية

(١) ينظر: (٥١٤/١، ٢٥٨، ٣٨٨)،(٧٠٤/٢، ٦٩٥ -٧٠٨)،(١٤٠٨/٣، ١١٨٠)، (٤٣٧٣/٨، ٤٣٧٤)

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

وقتا بعد آخر، ووجدنا بيت المقدس يخربه اليهود ويستولون عليه، ووجدنا من الملوك من يؤيدونهم.

اللهم لا حول ولا قوة إلا بك وأنه ينطبق علينا قولك الحكيم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ "(١).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ يبين أبو زهرة الآية بقوله:" هذه إشارة إلى كمال المباينة بين دعوة الحق التي يدعو إليها الله ﷻ، ويبين سبلها، ودعوة أولياء الشيطان، فإن دعوة الله تعالى هي دعوة إلى الفطرة السليمة التي لم تنحرف، ولم تخرج عن النجد السوي، ليس فيها تحريم للطيبات ومتع الحياة وليس فيها انطلاق إلى الأهواء والشهوات والخروج عن سنن الفطرة المستقيمة. وأما دعوة أولياء الشيطان، فهي دعوة إلى الانحراف، والميل إلى جانب الشهوة ميلا عظيما، ينحرف به عن سبيل الإنسانية المهذبة. وهذا الكلام يدل على أن الناس في كل عصر يوجد فيهم داعيتان: أحدهما إلى الحق والاعتدال، وأولئك يدعون بدعاية الرحمن، وهداية الأديان لا تحرم ما أحل الله من طيبات، ولكن بقدر لا اعتداء فيه ولا انحراف، وآخرون هم داعية الشيطان، وهؤلاء يكونون بأعمالهم وأقوالهم وأشعارهم في الماضي وصحفهم في الحاضر داعين إلى الانحراف ...سبحانك ربى، ما أصدق بيانك وأحكم قرآنك! إننا نجد الآن كما كان في الماضي الذين يتبعون الشهوات ويريدون من أهل الحق أن يميلوا ميلا عظيما، فهؤلاء الآن يدعون إلى مجونهم، مرة باسم الوجودية، وأخرى باسم التحرر، وثالثة باسم الحرية، وقد كتبوا في ذلك كتبا، ونشروا قصصا مثيرة يدعون إلى أن يميل الناس كل الميل واسترسلوا في ذلك استرسالا بكل وسائل الدعاية، فمن خيَّالة تري المناظر المثيرة، ومناظر في الطرقات تحرض على الفسق والمجون، ومن استباحة علَنية لكل ما يخالف الدين والخلق لتتحقق إرادتهم، ولكن إرادة الله تعالى غالبة بعونه سبحانه "(٢).

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء:٧٦]. يقول: " وإن السبب في أن يجاهد

(١) (٢٩٩/١، ٣٠٠)
(٢) زهرة التفاسير (١٦٥٢/٣، ١٦٥٣)

المؤمنون في سبيل الله، وهي سبيل الحق ورفع الإنسانية، والمحافظة على كرامة الإنسان، هو إيمانهم، فالإيمان يدفع إلى أسمى الغايات والدفاع عنها، وذلك السمو هو سبيل الله تعالى، والكافرون لعدم إيمانهم بالمثل العليا الإنسانية يقاتلون في سبيل الطغيان والسيطرة الظالمة على الأرض.

وإن هذه ظاهرة ثابتة، فالقتال في ظل الدين، والتمسك بمثله العليا، رفعة للإنسانية ومنع الفساد، ومنع لتحكم الرذيلة في الفضيلة. والماضي ينبىء عن ذلك، فقتال النبي والصحابة من بعده كان فيه حد من طغيان الملوك، وظلم الظالمين، ونشر للواء العدل، ومنع للفتنة في الدين، وتحكم الإنسان في أخيه الإنسان. وقد وصف الله المؤمنين إذا انتصروا فقال ﷻ في أحوالهم: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ [الحج:٤١]. أي أنهم إذا انتصروا رفعوا لواء العدل، وأقاموا مجتمعا فاضلا على أساس من الفضيلة ودفع الرذيلة.

وأما الذين لا يذعنون للحق، ولا يؤمنون به، ولا يقيمون للفضيلة وزنا، فإن قتالهم في سبيل الغلب، والسلطان الغاشم، والتحكم والسيطرة، وإن الماضي والحاضر يشهدان بصدق ذلك، وإن العيان ليؤيد هذه الشهادة الصادقة. ألم تر إلى أولئك الذين يتحكمون الآن في مصاير العالم، لا يفكرون إلا في الغلب على قطعة من الأرض يستولون عليها، أو يبسطون نفوذهم فيها، وما ذلك إلا طغيان المتحكمين المسيطرين في بلادهم! وانظر نظرة عميقة إلى أولئك الذين وضعوا أيديهم على أدوات الحرب المخربة، التي إن ألقيت لا تبقي ولا تذر، وتأكل الأخضر واليابس، فإنهم يتغالبون على النفوذ، ولو استشيرت أممهم فردا فردا، لاستنكروا ما هم مقدمون عليه أو يكادون! فالحروب التي يثيرها الكافرون في هذا الزمان لا يدفعها إلا طغيان أفراد معدودين، يتحكمون في الشعوب ومصايرها، بطريقة أقسى مما كان يتحكم الملوك من قبل! "[1].

والحق أن أبا زهرة امتاز تفسيره بتنزيل الآيات على الواقع وهذا المعلم حقيق بأن يفرد بدراسة مستقلة.

(١) زهرة التفاسير (١٧٦٦/٣)، وينظر: (١٤٥٠/٣)

الخاتمة

بعد هذه الإطلالة الموجزة على تفسير أبو زهرة، تبين لي جملة من النتائج، على النحو التالي:

١. المكانة العلمية والمنزلة العالية التي تبوأها أبو زهرة، وهذا ظاهر في جهود الدعوية، والإصلاحية، والعلمية، كما في كثرة مؤلفاته، وبحوثه، وتنوعها.

٢. يعد زهرة التفاسير من التفاسير ذات الاتجاه الاجتماعي، وهو اتجاه سلكه عدد من المعاصرين، منهم أبو زهرة.

٣. أبرز ملامح التجديد العامة في تفسير أبو زهرة ما يلي:

أولا: تشدده تجاه الإسرائيليات.

ثانيا: يحمل على اليهود والنصارى حملة شديدة، ويبين تحريفهم، وشدة عتوهم واستكبارهم عن الحق، ويفند شبهاتهم.

ثالثا: يبن معنى المفردة من خلال سياقها مرورا بالمقارنة مع استعمالاتها الأخرى في القرآن:

رابعا: إبرازه الجوانب البلاغية في الآيات، وإظهاره أسرار التعبير القرآني في صور متعددة من أبرزها ذكر مناسبة ختم الآي لها.

خامسا: اعتماده على قاعدة السياق في الترجيح.

سادسا: يشير أحيان إلى بعض التفسير العلمي للآيات بإيجاز.

سابعا: كتب مقدمات لكل سورة يذكر فيها موضوعاتها، وشيئا من هداياتها.

ثامنا: وضع عناوين لبعض الآيات، قبل البدء بتفسيرها.

٥.أبرز ملامح التجديد من خلال الاتجاه الاجتماعي في تفسير أبو زهرة، ما يلي:

أولا: يميل إلى اختيار جميع الأقوال التي قيلت في تفسير الآية، ما دامت تبرز مبدأ إصلاحيا، يحرص على إبرازه والدعوة إليه، ويختار أحدها أحيانا للسبب نفسه، وقد يذكر وجها آخر في معنى الآية يرى أنه أبلغ في المعنى الإصلاحي مما ذكره المفسرون.

ثانيا: استغلاله مناسبات ختم الآيات للانطلاق منه في الحديث عن هدف إصلاحي ينشده

ثالثا: في عرضه لآرائه الإصلاحية يناقش الرأي دون التصريح بقائله، أو تحديد الجهات، بما يدركه القارىء العارف بالواقع من المخاطب به، والمغزى منه.

رابعا: ربط التفسير بواقع الناس، وبيان الحاجة للمنهج الإلهي لإصلاح المجتمعات المسلمة.

خامسا: عنايته ببيان شمول المنهج الإصلاحي للفرد والمجتمع والدولة.

مراجع البحث

- القرآن الكريم.
- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر – أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي – رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية – ط/ الأولى – ١٤٠٧هـ– ١٩٨٦م.
- الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.
- إحياء علوم الدين – أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي – دار المعرفة – بيروت.
- الإسرائيليات في التفسير والحديث – د. محمد حسين الذهبي – مكتبة وهبة – القاهرة – ط/ الرابعة – ١٤١١هـ– ١٩٩٠م.
- الإعجاز القرآني في دراسات أبي زهرة– رسالة دكتوراه –كلية أصول الدين – جامعة أم درمان الإسلامية – ١٤٣٣هـ – محمد أبو القاسم محمد الحضيري.
- الأعلام – خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي – دار العلم للملايين – ط/ الخامسة عشر – ٢٠٠٢ م.
- بحوث في أصول التفسير و مناهجه – أ د. فهد بن عبد الرحمن الرومي – مكتبه التوبة – ط/ الرابعة – ١٤١٩هـ.
- البرهان في علوم القرآن – أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه – ط/ الأولى – ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس – أبو الفيض مرتضى الزَّبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزّاق الحسيني – المحقق: مجموعة من المحققين – دار الهداية.
- التجديد في تفسير القرآن – د. أحمد الشرقاوي – المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية – المجلد الثاني عشر – العدد الثالث – ١٤٣٧هـ،٢٠١٦م.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م
●التجديد في التفسير – يحيى شطناوي – مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث – حلب – المجلد السادس – العدد الثالث والعشرون – سنة١٤٣١هـ –٢٠١٠م.
● التجديد في التفسير مادة ومنهاجاً – الدكتور جمال أبو حسان – المكتبة الشاملة.
●التجديد في الفكر الإسلامي – د. عدنان محمد أمامه – دار ابن الجوزي – ط/ الأولى – ١٤٢٤هـ.
●التسهيل لعلوم التنزيل – أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي– تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي – شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت – ط/ الأولى – ١٤١٦ هـ.
●تعريف الدارسين بمناهج المفسرين – د. صلاح عبد الفتاح الخالدي – دار القلم – مشق – ط/الأولى –١٤٢٣هـ –٢٠٠٢م.
●التفسير والمفسرون – د. محمد السيد حسين الذهبي – مكتبة وهبة – القاهرة.
●تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق– د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر – جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم – ط/ الأولى – ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.
●تنزيل الآيات على الواقع عند ابن القيم – د. يحيى بن محمد زمزمي – مجلة البحوث والدراسات القرآنية – العدد الرابع – السنة الثانية.
●تهذيب اللغة – أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، – تحقيق: محمد عوض مرعب – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط/ الأولى، ٢٠٠١م.
●الجامع لأحكام القرآن – شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي – تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش – دار الكتب المصرية – القاهرة – ط/ الثانية – ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.
●الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه – أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي – تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر – دار طوق النجاة – ط/ الأولى – ١٤٢٢هـ.
●زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي – القاهرة.
●شرح أصول في التفسير – محمد بن صالح العثيمين – مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية – ط/ الثانية – ١٤٣٥هـ.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

●علوم القرآن الكريم – نور الدين محمد عتر الحلبي – مطبعة الصباح – دمشق – ط/ الأولى – ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

●العناية بالقرآن الكريم وعلومه من بداية القرن الرابع الهجري إلى عصرنا الحاضر – د. نبيل بن محمد آل إسماعيل – مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

●عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته – أبو عبد الرحمن، شرف الحق، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، الصديقي، العظيم آبادي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط/ الثانية، ١٤١٥ هـ.

●كتاب العين – أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري – تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي – دار ومكتبة الهلال.

●لسان العرب– محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي – دار صادر – بيروت – ط/الثالثة – ١٤١٤ هـ.

●لسان الميزان – أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني – تحقيق: دائرة المعرف النظامية – الهند – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت – لبنان ط/ الثانية،١٣٩٠هـ –١٩٧١م.

●لمحات في علوم القرآن واتجاهات المفسرين – د. محمد بن لطفي الصباغ – المكتب الإسلامي – بيروت – ط/ الثالثة –١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

●مآذن من بشر أعلام معاصرون – أ د. خالد فهمي، أبو الحسن الجمال – دار البشير للثقافة والعلوم – ط/ الأولى – ١٤٣٧٦هـ – ٢٠١٦م.

●المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي – تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد – دار الكتب العلمية – بيروت – ط/ الأولى – ١٤٢٢هـ.

●مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه – عدنان محمد زرزور – دار القلم – دار الشاميه – دمشق –بيروت – ط/ الثانية – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ – أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير – أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي – المكتبة العلمية – بيروت.
- المعجزة الكبرى القرآن – محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي.
- معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب – شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي – تحقيق: إحسان عباس – دار الغرب الإسلامي، بيروت – ط/ الأولى – ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.
- المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين – أعضاء ملتقى أهل الحديث – المكتبة الشاملة – أعده للشاملة: أسامة بن الزهراء عضو في ملتقى أهل الحديث.
- معجم المؤلفين – عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي – مكتبة المثنى – بيروت– دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- مفهوم تجديد الدين – بسطامي محمد سعيد – مركز التأصيل للدراسات والبحوث– ط/ الثالثة – ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م.
- المقدمات الأساسية في علوم القرآن – د. عبد الله بن يوسف الجديع العنزي – مركز البحوث الإسلامية ليدز – بريطانيا – ط/ الأولى – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
- مقدمة في أصول التفسير – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني – دار مكتبة الحياة – لبنان – بيروت–١٤٩٠هـ – ١٩٨٠م.
- الملل والنحل – أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني – مؤسسة الحلبي.
- من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة – المستشار عبد الله العقيل – دار البشير – ط/ السابعة – ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن – محمد عبد العظيم الزُّرقاني– مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – ط/ الثالثة.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

- منهج الشيخ محمد أبي زهرة في التفسير وعلوم القرآن- محمد أبو القاسم محمد الحضيري- رسالة ماجستير في كلية أصول الدين جامعة أم درمان الإسلامية – ١٤٢٨هـ.
- منهج الشيخ (محمد أبو زهرة) في التفسير – فهد بن عبد الله بن فريح الناصر – رسالة مقدمة لاستكمال درجة الماجستير في التفسير والحديث-كلية التربية جامعة الملك سعود -١٤٢٢هـ.
- محمد أبو زهرة ومنهجه في تفسيره زهرة التفاسير – أمل كاظم زوير الزيدي- رسالة لاستكمال درجة الماجستير في علوم القرآن-كلية الآداب الجامعة الإسلامية – بغداد- ١٤٢٩هـ.
- معالم التجديد في التفسير المدرسة الإصلاحية أنموذجا (الجزء الأول) لحمو بن عيسى الشيهاني- موقع كلية المنار للدراسات الإنسانية – http://univmanar.org/
- نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر – د. يوسف المرعشلي – دار المعرفة – بيروت – ط/ الأولى – ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين – د. محمد رجب البيومي – دار القلم – دمشق – الدار الشامية – بيروت – ط/ الأولى – ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- الوافي بالوفيات – صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي – تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى – دار إحياء التراث – بيروت – ١٤٢٠هـ .- ٢٠٠٠م.

ثالثًا :
الحديث وعلومه